

في
التنوير الإسلامي
« ٦ »

الانتماء والشفاف

تأليف
د. محمد عمارة

الانتماء الشفاف

تأليف
د. محمد عبادة



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة ١٩٣٨



اسم السلسلة: في التنوير الإسلامي.

اسم الكتاب: الانتماء الثقافي

تأليف: دكتور / محمد عفارة.

تاريخ النشر: أكتوبر ١٩٩٧.

رقم الإيداع: ٣٧٣٥ / ١٩٩٧.

الترقيم الدولي: 7- 0583 - 14 - 977 I . S . B . N

الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع

المركز الرئيسي: ٨٠ المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة السادس من أكتوبر

ت: ٣٣.٢٨٧ - ٣٣.٢٨٩ / ١١.

فاكس: ٣٣.٢٩٦ / ١١.

مركز التوزيع: ١٨ ش كامل صدقي - الفجالة - القاهرة .

ت: ٥٩.٩٨٢٧ - ٥٩.٨٨٩٥ / ٢.

فاكس: ٥٩.٢٣٩٥ / ٢.

إدارة النشر: ٢١ ش أحمد عزابي - المهندسين - القاهرة

ت: ٢٤٦٦٤٣٤ - ٢٤٧٢٨٦٤ / ٢. فاكس: ٢٤٦٢٥٧٦ / ٢.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كلمات

« وما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة النوائب .
وما اختار الله - تعالى - للمصائب إلا الرجال ، ولا يثبت
لأنهم الغيوث إلا الجبال .

والعاقل يتلذذ بما يراه في فصول تاريخه من العظم والجلالة ،
وإن كان المبدأ صعبة وكدرا في أعين الواقفين عند الظواهر .
والشدة إن صوتت بجلجلها ، وحلت بكلكلها ، ماذا عسى
أن يكون ، مما تتخيله الظنون ؟ .

أليس الأمر يرجع إلى موت وحياة ؟ وهذان لا يملكهما إلا
الله ، وقد فرغ من تقدير الأشياء قبل خلق المسببات
والأسباب .

﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (١) (٢) .

عبد الله النديم

(١) الحديد : ٢٢ .

(٢) عبد الله النديم . مجلة (الاستاذ) العدد الرابع عشر ص ٣١٨ وإثنائي والأربعون
ص ١٠٣٢ . طبعة مصورة عن الأصل . القاهرة . دار كتبخانة للنشر والتوزيع سنة
١٩٨٤ م .

تعريف في سطور

النديم .. هو: ◆

● عبد الله بن مصباح بن إبراهيم الإدريسي الحسني (١٢٦١ - ١٣١٣هـ - ١٨٤٥ - ١٨٩٦م) .

● كاتب وشاعر وخطيب ، وسياسي مناضل ، وعالم في كثير من العلوم الإسلامية ، ورأسخ القدم في علوم العربية الفصحى ، ومبرز في النظم والكتابة باللهجة العامية .

● ولد بالإسكندرية ، وحصل ما حصل من الثقافة والعلوم بالجهد الذاتي والمناهج غير النظامية .

● احترف بعض المهن ، وشغل عددا من الوظائف الصغيرة والثانوية .

● أنشأ « الجمعية الخيرية الإسلامية » - في الإسكندرية - للرعاية الاجتماعية ، ولتعليم أبناء الفقراء .

● تفتحت مواهبه ، ككاتب ، في صحافة تيار الإحياء والتجديد ، الذي قادة جمال الدين الأفغاني (١٢٥٤ - ١٣١٤هـ - ١٨٣٨ - ١٨٩٧م) ، فكتب في صحف (المحروسة) و (العصر الجديد) ..

● شارك في قيادة الثورة العربية (١٢٩٨ - ١٢٩٩هـ - ١٨٨١ - ١٨٨٢م) وكان أبرز خطبائها المهيجين وألغ كتابها الشوريين . وأصدر إبان الثورة صحيفة (التنكيك والتبكيك) - رجب سنة ١٢٩٨هـ - ٦ يونية سنة ١٨٨١م - و (الطائف) - التي حلت محل (التنكيك والتبكيك) - ومثلت لسان حال الثورة .

● بعد هزيمة الثورة ، أمام التدخل العسكرى للاستعمار الإنجليزى ، واحتلال مصر ، طاردت السلطة الاستعمارية عبد الله النديم ، فاختفى - فى ذى القعدة سنة ١٢٩٩هـ سبتمبر سنة ١٨٨٢م - عشر سنوات ، كانت ملحمة من ملاحم الصمود والمعاناة .. وفيها ألف عشرين كتابا ، تشهد موضوعاتها - بل وعناوينها - على عمق تكوينه العلمى فى علوم الإسلام والعربية ، وعلى قدمه الراسخة فى مدرسة الإحياء والتجديد .

● وبعد القبض عليه - نتيجة وشاية - فى صفر سنة ١٣٠٩هـ سبتمبر ١٨٩١م - حُبس أياما ، ثم نفى من مصر ، فأقام بفلسطين ، حتى عفى عنه الخديوى عباس حلمى الثانى (١٢٩١ - ١٣٦٣هـ ١٨٧٤ - ١٩٤٤م) فعاد إلى مصر سنة ١٣١٠هـ ١٨٩٢م ، وأصدر مجلة (الأستاذ) - (١٣١٠هـ ١٨٩٢م ١٣١٠هـ ١٨٩٣م) .

● وبسبب مقالاته فى (الأستاذ) نفاه الإنجليز ، ثانية ، فذهب إلى فلسطين ، ثم إلى الأستانة ، فعمل فيها ، وصحب أستاذه جمال الدين الأفغانى ، حتى وافاه الأجل ، ودفن هناك .

● له من الآثار الفكرية والأدبية - غير الصحف التى أصدرها وحررها - كتب : (كان ويكون) و (كتاب الاحتفا فى الاختفا) و (السانحة فى علوم الفاتحة) و (الآلام واللذات فى اتصال الروح بالذات) و (وصرف الوضمة^(١) عن صرف^(٢) العصمة) و (وفد البديع على باب الشفييع) و (خلاصة ما كان فى ليس فى الإمكان أبدع مما كان) و (الفرائد) و (طهارة القلوب والأفواه شرح لا إله إلا الله)

(١) الوضمة - بفتح الواو وسكون الضاد - الجماعة من الناس .

(٢) الصرف - بكسر الصاد وسكون الراء - الخالص من الشيء .

و (حلة الأنوار لمادح المختار) و(سيف الموحّد في نحر الملحد)
و(ترصيع الماس في خير الناس) و (مأثم البُكّي على آل النبي)
و(وطنية الشرق) و(النحلة في الرحلة) و(السكر النبات في تربية
البنين والبنات) و(نحن وأنتم) و(إنقاذ البليد من ورطة التقليد)
و(الدر النفيس في تاريخ بنى إدريس) و(نبيل الأرب في أخبار
العرب) ..

كذلك ، له ديوانان لأشعاره .. وروايتان تمثيليتان عنوانهما
(العرب) و(الوطن) ..

تمهيد

عن الموضوع .. والمنهاج

عندما يكون موضوع هذه الصفحات عن « الانتماء الثقافي للنديم » .. فإن أول ما يجب هو تحرير مضامين المصطلحات ..

● فالانتماء : هو الانتساب ، الذى يجسد خيوط الولاء التى تشد الإنسان المنتسب إلى ما ينتسب إليه ، فيرتبط به ، وينجذب إليه ، ويخلص له الولاء والانتماء ..

● والثقافى : نسبة إلى الثقافة - التى هى جماع المهارات التى تثمر عمران النفس الإنسانية وتسهم فى تهذيبها - تثقيفها - وارتقاؤها على درب المثل والمقاصد والنماذج التى صاغتها وتصوغها العقائد والفلسفات التى يؤمن بها هذا الإنسان .. فهى - الثقافة - مع « المدنية » - التى تمثل عمران « الواقع » - جماع الحضارة والعمران :

● والحديث عن الانتماء والانتساب والولاء الثقافى لعبد الله النديم ، لابد وأن يحدد موقع انتمائه الثقافى إزاء :

(أ) الوافد الثقافى الغربى - الذى فتحت أمامه الأبواب ، فى عصر النديم ، أكثر من ذى قبل .

(ب) وإزاء موروثنا الفكرى والثقافى ، وتيارات هذا الموروث ..

(ج) وموقع النديم - ولواء وانتماء - من دوائر الانتماء الثقافى :

١ - الوطنية - التى كانت تمثلها مصر .

٢ - والدائرة الشرقية - التى كانت تستخدم ، فى أدبيات ذلك العصر ، للدلالة على الدائرة الإسلامية ، وما فى أوطانها الشرقية من أجناس وأقوام ، ومن ملل وأديان .

٣ - والدائرة الجنسية - التى تحدد حدودها الأعراق .

٤ - والدائرة العثمانية - الجامعة لأقوام وملل شرقية متعددة . .

أين كانت ثقافة النديم من هذه الدوائر والمؤثرات والمرجعيات ؟؟

● ولقد اعتمدت هذه الدراسة وأحدا فقط من الآثار الفكرية للنديم كى يكون الديوان الذى نكتشف فيه ومنه انتماءه الثقافى . . وهو مجلة (الأستاذ) . .

ولم يكن سبب الوقوف عند (الأستاذ) ، دون غيرها من صحف النديم وكتبه ، بسبب حجم الدراسة - الذى قد يقتضى الاقتصاد - غير الخلل - فى المصادر وإنما كان الاكتفاء بهذا المصدر - مجلة (الأستاذ) - مؤسسا على العديد من الأسباب . .

١ - فمجلة (الأستاذ) هى آخر الأعمال الفكرية لعبد الله النديم ، وفيها تجسد الموقف الأخير الذى انتهت إليه وختمت به رحلته الثقافية ، التى حفلت بالمراحل والأطوار والمواقف والآراء . .

٢ - وفيها تمثلت مرحلة نضجه الفكرى ، حتى أنه يسمى أعداد - أجزاء - هذه المجلة - فى آخر مقالاته بأخر أعدادها - يسميها «أجزاء كتاب العبر ، وباب المبتدأ والخبر»^(١) ! .

(١) (الأستاذ) العدد الثانى والأربعون . ص ١٠٣١ .

٣ - وعلى صفحات هذه المجلة تناثرت خلاصات تأملاته فى سنوات اختفائه العشرة . . بل لقد كان نشر هذه المجلة لخلاصات موضوعات المؤلفات العشرين التى كتبها النديم فى فترة اختفائه واحدا من مقاصد إصدار هذه المجلة . . يعلن عن ذلك شقيقه «عبد الفتاح النديم الإدرسى» ، فى العدد الأول من (الأستاذ) فيقول : «والحامل لى على فتح هذه الجريدة»^(١) ، أنى رأيت شقيقى الفاضل السيد عبد الله أفندى النديم ، المنشئ الشهير ، قد مضى مدة اختفائه مشغلا بوضع كتب لاتخلو من الفوائد . . فاستأذنته فى نشرها . . ومع كونى اتخذت هذه المؤلفات مادة للجريدة ، فإننى وكلت تحرير مطالبها وترتيب رسائلها لقلمه»^(٢) . .

ففى مجلة (الأستاذ) خلاصة مؤلفات النديم ، والآراء التى ختم بها مرحلة جهاده الفكرى ، بعد حقبة الاختفاء .

٤ - ويزكى هذا الاختيار لهذا المصدر ، أيضا ، ما تميزت به حقبة صدور (الأستاذ) من بعد عن ملابسات الهياج الفكرى وثقافة الشعارات وصياغات التعبئة الوطنية الحادة ، التى تميزت بها - وكان لابد أن تتميز بها - مرحلة الثورة العرابية ، ومقالات النديم أثناءها . .

٥ - كذلك ، كانت المواجهة - إيان صدور (الأستاذ) - مع «الآخر الثقافى» ، والوافد الفكرى الأوروبى ، حقيقة قائمة على أرض الواقع الثقافى - وليست مجرد احتمال - فكانت (الأستاذ) ميدانا من ميادين هذه المواجهة مع المنابر الثقافية والفكرية والسياسية التى مثلت «الآخر الثقافى» فى ذلك التاريخ ،

(١) كان عبد الله النديم «محرر الجريدة» وكان شقيقه «مدير الجريدة» .

(٢) (الأستاذ) العدد الأول ، ص ٣ .

وخاصة منبرى (المقتطف) و (المقطم) اللذين تمثلت فيهما حملة التبشير بآداب الغرب وبالساسة الاستعمارية ..

٦ - ثم إن حجم هذا المصدر - (الأستاذ) - كبير ، فصفحاتها تربو على الألف - ١٠٣٢ صفحة - . الأمر الذى يجعلها - بمادتها الثقافية - واقية كل الوفاء بتحديد معالم الانتماء الثقافى لعبد الله النديم ..

٧ - ويزيد من أهمية هذا المصدر ، مكانته فى ساحة الفكر والثقافة الشرقية - وليس فقط المصرية - فى ذلك التاريخ .. فهذه المجلة الأسبوعية ، التى لم يزد عمر صدورها عن عشرة أشهر^(١) ، قد فاق انتشارها كل الصحافة المصرية فى عصرها - جرائد كانت تلك الصحافة أو مجلات - يومية كانت أو أسبوعية أو شهرية تلك النشريات - ؟! .. فعلى حين كان توزيع (الهلال) - الشهرى - ٧٤٠ نسخة .. و (المقتطف) - الشهرى - ١٣٠٠ نسخة .. و (المقطم) - اليومى - ١٤٥٥ نسخة .. و (الأهرام) - اليومى - ٢٧٧٥ نسخة .. فإن توزيع مجلة (الأستاذ) قد بلغ ٢٨٤٠ نسخة متفوقا على سائر الصحافة المصرية فى ذلك التاريخ !! . فهى «ديوان» الانتماء الثقافى للنديم .. وهى أوسع دواوين الانتماء الثقافى - لمجتمعنا - انتشارا فى تلك الحقبة المتميزة من حقب المواجهة بين ثقافتنا وبين الوافد الثقافى الأوروبى .. الأمر الذى يرسخها مصدرا واقيا لدراسة موضوع هذه الصفحات .

(١) صدر العدد الأول : الثلاثاء ، أول صفر سنة ١٣١٠هـ - ٢٤ أغسطس ١٨٩٢م .
وصدر عددها الأخير - الثانى والأربعون - يوم الثلاثاء ٢٨ ذى القعدة سنة ١٣١٠هـ - ١٣ يونيو سنة ١٨٩٣م .

الانتماء الثقافى .. والتقدم : ◆

كانت حياة النديم معركة فى سبيل الاستقلال الوطنى والتقدم الحضارى ، تعدلت فيها الآليات ، وتميزت «ببرات الصوت» ، دون أن يغيب المقصد عن هذا المفكر السياسى المناضل فى لحظة من اللحظات ..

وفى الحقبة التى صدرت فيها (الأستاذ) - فى ظل حكم الاحتلال الإنجليزى .. وتحكم اللورد كرومر (١٨٤١ - ١٩١٧م) - كان النديم يتحائل ، كى يواصل جهاده ، بالإعلان عن أنه لن يخوض فى «السياسة» ، بمعنى «الإدارة» ، .. وأما فن السياسة ، من حيث هو ، فإنه يدخل فى موضوعها العلمى ، فإن علم التاريخ والأخلاق والعادات وتدبير الممالك ووحدة الاجتماع العالمى من الفروع السياسية « التى تدخل فى صميم رسالة (الأستاذ) »^(١) .. ومن هذا الباب لم تدع هذه المجلة ميدانا من ميادين المواجهة مع الاستعمار الإنجليزى ، ومع الوافد الثقافى الأوروبى - الذى قامت له منابر ثقافية وإعلامية رعاها الاحتلال الإنجليزى فى مصر يومئذ - لم تدع (الأستاذ) ميدانا من هذه الميادين إلا وخاضت فيه .. ففى التصدى لسلطة الاحتلال المباشرة ، استخدم النديم أسلوب «الرفق» لتحقيق الجلاء ، وكتب يقول : «وبالرفق يستخرج الإنسان الحية من وكرها .. وفى الإشارة ما يغنى عن الخبر ، فاعتبروا يا أولى الأبصار»^(٢) .. أما فى الفكر والثقافة ، فلقد كانت أعداد المجلة صراعا بين الانتماء الثقافى للنديم وأمتة وبين الوافد الغربى الذى يبشر به «الأجراء» و«العملاء» ! ..

(١) (الأستاذ) العدد الأول من ٢ ، ٣ .

(٢) المصدر السابق . العدد الثانى والعشرون . ص ٥٢٨ ، ٥٢٩ .

ولهذه الملاحظات ، فإن حديث التديم عن الانتماء الثقافي للأمة ، لم يكن لونا من ألوان « الترف الفكري » ، وإنما كان سلاحا لمقاومة الاحتواء الاستعماري للأمة ، وتحقيقا لشرط من شروط التقدم الحقيقي ، الذي يخرج الأمة من مأزق « التخلف الموروث » و« الهيمنة الوافدة » ..

والنديم ، الذي كتب دراسة ضافية عن أسباب تأخرنا وأسباب تقدم الغربيين ، رغم أن « الخلق واحد » - وجعل عنوانها : « يم تقدموا وتأخرنا والخلق واحد »^(١) !! .. ولعلها أقدم الدراسات في هذا الموضوع .. كان مهموما بقضية « التقدم » ، باحثا عن عوامل التراجع الحضاري ، وعن شروط النهضة .. ولقد امتدت بصيرته إلى الجذور التاريخية لتراجعنا الحضاري ، ورصد من عوامله الداخلية :

(أ) حكم التغلب وسلطان الاستبداد ..

(ب) وتجزئة السلطة وتشرذم الأقاليم في ديار الإسلام ..

(ج) وتراجع سلطان العلماء وتأثير المؤسسات العلمية والتعليمية ..

(د) وضيق السلاطين بالحرية الفكرية ، وتضييقهم على أرباب الأفكار الحرة وأهل الاجتهاد والتجديد ..

وهي أمراض التخلف الداخلي ، التي طرأت على حياتنا بعد حقبة ازدهار الحضارة الإسلامية ، عندما « جاءت الدولة العربية وأطلقت حرية الأفكار ، وجمعت العلماء من جميع الجهات ، وترجمت كتب الأوائل الحكمية وغيرها ، وفتحت بابا أغلقه

(١) المصدر السابق . العدد الخامس عشر . ص ٣٣٧ - ٣٥٢ .

الجهل قرونا طويلة . ثم انقضى دور الضخامة وتوحيد الكلمة ، وجاء وقت المتغلبين ، فتجزأت المملكة ، وتصدى الشائرون لقتل العلماء وإحراق الكتب وهدم المدارس ، فانطقت أنوار العلوم الشرقية ، وضيق ملوك الشرق على أرباب الأقلام ،^(١) .

وأبصر النديم دور التحديات الخارجية ، التي جابهت المسيرة الحضارية لأمتنا ، دورها في تنمية الأمراض الداخلية للتراجع الحضارى ، وفي إطالة عمرها ، وأخيلولة دون الخلاص منها . وعلى هذه الجبهة رصد تحديات الغزوة التترية ، والحروب الصليبية . ودورهما في استدعاء ودعم سلطات التغلب والاستبداد ، وفي تراجع دور العلم وسלטان العلماء . فبعد أن «أنبت روح العلم في المسلمين ، وظهر منهم علماء الشريعة الفراء ، والآليات ، والرياضيات ، والطبيعيات ، وزينوا الدنيا بعلومهم ، وملئوها بأدابهم ، ومزقوا ثوب الجهالة والضلالة بسيف الدين والعلم . جاءت فتنة التتار ، فقهرت سير المسلمين ، وأوقفت التقدم العنصرى . وأعظم منها فتنة الحروب الصليبية ، التي غرست العداوة بين الملتين الإسلامية والمسيحية ، ولاشت القوة العلمية بالقوة العدوانية ، فأخذ العلم في الانزواء ثم في التلاشى بموت أهله وإقفال مدارسه وإحراق كتبه ونهبها...»^(٢) .

وبعد الرصد لأسباب التخلف التاريخى ، الداخلى منها والخارجى ، نبه النديم على أن التقدم إنما يمثل حركة شاملة للنهوض ، لا بد فيها من تضامير «الملوك - والدول» و«العلماء وأرباب الأقلام والأفكار» و«الأغنياء وجمعيات وشركات التجارة والصناعة والزراعة» .

(١) المصدر السابق . العدد الخامس عشر . ص ٣٤٨ .

(٢) المصدر السابق . العدد الحادى والثلاثون . ص ٧٣٠ .

فإذا كان « التأخر إنما جاء من تعميم الجهالة ، بإغضاء الملوك عن وسائل التعليم ، والتصديق على أرباب الأقلام والأفكار ، وبعد الأغنياء عن الجمعيات ، وتقاعدهم عن ضروب التجارة والصناعة والزراعة ، ورضاهم بالبقاء تحت أسر الشهوات » . فإن التقدم مشروط . بإطلاق الملوك حرية الأفكار والمطبوعات ، تحت المراقبة ، وبذل الأغنياء الذهب في حياة الصناعة ، وتعميم المعارف في المدن والقرى ، ومساعدة العلماء على الرحلة خلف حياة العلم ، واجتماع كلمة الملوك وانوزراء والأمم على السعي خلف التقدم ، وبذلك يمكنهم أن يوقفوا تيار أوروبا شيئا فشيئا حتى يضارعوها قوة وعلماء... (١) .

فلم يكن النديم داعية لمطلق « التقدم » ولا لـ « تقدم » . وإنما هو هنا داعية . للتقدم الذي يوقف تيار أوروبا شيئا فشيئا ، وذلك بمضارعتها قوة وعلماء... ولهذا الحقيقة ، التي ميزت التقدم الذي دعا إليه النديم ، والتي ميزت وتميز الانتماء الثقافي الذي أفاض في الحديث عنه ، جاء حديثه عن ضرورة تحديد « المرجعية » . والمبدأ ، الذي تبني عليه الأمة أعمالها على درب التقدم ، إخراجها وخروجها من الخيرة التي تعانيها إزاء التعددية في مرجعيات ومبادئ التقدم والنهوض... فرجال الشرق ، أخذوا يحاكون أوروبا... وسعوا في جمع كلمتهم ، وعقد الجمعيات لفتح مدارس العلوم والصنائع وتهذيب النفوس وتعميم الآداب ، ولكنهم ، مع بقائهم على التفرق ، وعدم اتخاذ مبدأ يبنون عليه أعمالهم ، لاتزال الأيام تقيمهم وتقعدهم ، وهم حيارى بين المقعد والمقيم (٢) . !

(١) المصدر السابق - العدد الخامس عشر - ص ٣٥٢ .

(٢) المصدر السابق - العدد العشرون - ص ٤٦١ ، ٤٦٢ .

ولم يترك النديم قارته فى حيرة إزاء الانتماء الثقافى «للمرجعية .. والمبدأ» الذى ركاه منطلقا للتقدم الذى دعا إليه .. فهو انتماء «للجامعة الشرقية» وثقافتها .. تلك التى رآها إطارا جامعيا يضم تحت جامعها الأكبر العديد من دوائر الانتماء الفرعى ، التى تتكامل فى بناء نموذج ثقافى شرقى - متميز عن النموذج الثقافى الغربى - الذى صارعه النديم على صفحات مجلة (الأستاذ) ..

وقضية «التعددية» فى دوائر الانتماء الثقافى ، تبرز فى كتابات النديم عندما يعرفنا بنفسه ، فهو : «عبد الله النديم ، الإدريسى ، الحسنى ، الأشعرى ، الشافعى ، الخلوئى ، الإسكندرى^(١)» .. ففيه تتعدد وتكامل دوائر الانتماء والانتماء إلى الأسرة .. وإلى آل البيت من أبناء الحسن بن على بن أبى طالب - رضى الله عنهما - وإلى الأشعرى - فى علم الكلام وأصول الدين - .. وإلى الشافعى - فى فقه الفروع - وإلى الخلوئية - فى طرق التصوف .. وإلى الإسكندرية - فى الميلاد والنشأة ..

وفى عناوين مؤلفات النديم تطالعنا هذه الحقيقة .. ففيها كتاب عن (وطنية الشرق) .. وكتاب (نحن وأنتم) - عن تميز الشرق عن الغرب الأوروبى .. وكتب عن التاريخ العربى والتراث الإسلامى .. ومن بين كتبه العشرين عشرة خالصة للإسلاميات^(٢) ..

أما مجلة (الأستاذ) ، التى وصف أعدادها بأنها «أجزاء كتاب العبير ، وباب المبتدأ والخير»^(٣) .. والتى كانت منبرا للمرابطة الشرقية ، فإنه يصفها بأنها «جريدة إسلامية» تجاوز «جرائد دينية

(١) المصدر السابق ، العدد الحادى والأربعون ، ص ٩٩٩ .

(٢) المصدر السابق ، العدد الثانى والأربعون ، ص ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ .

(٣) المصدر السابق ، العدد الثانى والأربعون ، ص ١٠٣١ .

مسيحية للبروتستانت » ، وتصارع « جرائد الأجراء » - المبشرين
بالانتماء الثقافي للغرب - من مثل (المقتطف) و(المقطم) (١) !! .

وإذا كان النديم قد بدأ حياته الفكرية والثقافية في صحافة تيار
الجامعة الإسلامية ، الذي بلوره وقاده جمال الدين الأفغاني . .
وختم حياته بصحبة الأفغاني في الأستاذة - حيث شيعه الأفغاني
إلى مشواه الأخير - فإنه قد أعلن - في مجلة (الأستاذ) - عن
انتمائه لهذا التيار التجديدي ، الذي سعى إلى تجديد دنيا
المسلمين بتجديد دين الإسلام . . ففضلا عن إعادته نشر بعض
مقالات (العروة الوثقى) - لسان حال ذلك التيار (٢) - فإن حديثه
عن الأفغاني وعن الإمام محمد عبده شاهد على هذا الانتماء . .
فهو يتحدث عن « السيد جمال الدين الأفغاني ، الشهير ، الفنى عن
التعريف ، افرجل الذي جرب الأمور ، وساح الأقطار ، وخائط الأمم ،
وداخل السياسيين ، ودرس التاريخ الحاضر والماضى ، وامتد باعمه في
العقليات ، فأصبح أمة وحده بين ذوى الفضل . الأمر الذي دعاهم لانا
الخليفة الأعظم لاستدعائه وإدخاله في لقيف العلماء الخاص بمجلمه
العانى ، فقد أهله المعارف والتجارب والمخالطة العامة لسامرة الملوك
والنظر في السياسات العالية . وهذا كله من فضل السيد الأعظم حفظه
الله تعالى » (٣) .

فإذا كان السلطان وأمير المؤمنين - عند النديم - هو « الخليفة
الأعظم » ، فإن « السيد الأعظم » هو جمال الدين الأفغاني ! وهو

(١) المصدر السابق . العدد الرابع والثلاثون . ص ٧٩١ ، ٧٩٢ .

(٢) المصدر السابق . العدد الثامن والثلاثون . ص ٨٩٧ - ٩٠٥ .

(٣) المصدر السابق . العدد السادس والثلاثون . ص ٨٦٨ ، ٨٦٩ .

يكتب ذلك في ظل الاحتلال الإنجليزي ، يوم كان الانتساب للأفغانى من كبائر المحرمات ! ..

أما تقدير النديم للإمام محمد عبده - وهو أبرز تلاميذ الأفغانى .. وأعظم مهندسى صرح التجديد الإسلامى فى مدرسة الجامعة الإسلامية - وللكتاب والمفكرين الذين تكونت منهم مدرسة النهوض بالعربية والتجديد لأساليب التحرير بها - فإنه يتجلى من وصف النديم الذى يقول فيه : «.. أفضل الفضلاء ، وإمام محراب الإنشاء ، الأستاذ الشيخ محمد عبده ، والجهاذة المتفنين ، والكتبة المقتردين : حسن بك حسنى ، وإبراهيم أفندى على اللقائى ، وإبراهيم أفندى الهلباوى ، وحسن أفندى الشمسى ، وأحمد أفندى سمير ، ووفاء أفندى محمد ، وسعد أفندى زغلون ، والطيب الذكر أديب أفندى إسحق ، وغيرهم من الفضلاء الذين عرفتهم الأقلام بما أودعوها من أسرار الإنشاء وضروب التحرير...» (١) ..

وهى أوصاف شاهدة على موقع فكر أعلام هذه المدرسة من مدارس الإحياء والتجديد الإسلامى فى الانتماء الثقافى لعبد الله النديم .

ففى إطار «الجامعة الإسلامية» - وأنتى كثيرا ما سميت «الجامعة الشرقية» و «الرابطة الشرقية» . كان الانتماء الثقافى للنديم .

وفى إطار هذا «الجامع الأكبر .. والأول .. والأشمل» رأى النديم تعدد وتكامل دوائر الانتماء الثقافى ، إن على مستوى الفرد .. أو الوطن .. أو الجنس .. أو الأمة .. أو دولة الخلافة ، التى كانت تجمع ، يومئذ ، العديد من دوائر الانتماء .

(١) المصدر السابق . العدد التاسع والثلاثون . ص ٩٣٨ .

الجامعة الشرقية: انتماء حضارى فى مواجهة الغرب ◆

تحدد الثقافة ، التى تصوغ الوعى ، للإنسان - فردا أو شعبا أو أمة - حدود دائرة المحيط ، التى يمنحها الولاء ويخصها بالانتماء . . فهناك ثقافات تقف بانتماء صاحبها عند حدود القبيلة ، وأخرى لا تجعل صاحبها يتجاوز جغرافية الوطن ، وثالثة تقصر الانتماء والولاء على الجنس - بالمعنى العرقى والسلالى - ومن الثقافات ما تجعل الدائرة الحضارية هى محيط الانتماء . . ومنها ثقافات أعمية طمحت إلى حصر الانتماء فى طبقة من الطبقات الاجتماعية على امتداد الإنسانية . . أو إلغاء ما عدا الدائرة الإنسانية من دوائر الولاء والانتماء . .

وفى كتابات عبد الله النديم تركيز واضح على أن دائرة انتماؤه الثقافى هى الدائرة الشرقية - بالمعنى الحضارى ، الذى يجعل تميزها نابعا من مقابلتها للحضارة الغربية ، التى كانت تقتحم أبواب الشرق وحياة أهله فى ذلك التاريخ . . وفى هذه الكتابات أيضا ما يؤكد على اشتما ، هذه الدائرة الشرقية - كجامع حضارى أكبر - على العديد من دوائر الانتماء الفرعية ، التى لاتناقض بينها وبين هذا الانتماء إلى الدائرة الحضارية الشرقية . .

والأمر الذى يؤكد أن « الشرق » فى هذه الثقافة لم يكن معنى جغرافيا فحسب ، وإنما كان دائرة حضارية ، هو استخدام هذا المصطلح - « الشرق » - فى أدبيات التيار الفكرى الذى انتمى إليه النديم كمترادف لمصطلح « الإسلام » ، فالحضارة الشرقية والجامعة الشرقية ، والرابطة الشرقية ، والنهضة الشرقية ، والشعوب الشرقية . . إلخ . . إلخ . . كان المعنى بها حضارة الإسلام

وجامعته ورابطته ونهضة شعوبه ، والتي تضم مللا وأقواما هي جزء أصيل وعضوى من حضارة الإسلام - وإن ميزتها لغات أو معتقدات روحية لاقتل بدائل لهذه الطوائف عن السمات الجامعة لحضارة الإسلام ..

ولقد أشارت مجلة (العروة الوثقى) - لسان حال تيار « الجامعة الإسلامية » - وهى تتحدث عن منهج هذا التيار وأهدافه - إلى هذه الحقيقة - حقيقة استخدام مصطلح « الجامعة الشرقية » بمعنى « الجامعة الإسلامية » ، عندما قالت : إنها « ستأتى فى خدمة الشرقيين على ما فى الإمكان .. وتأتى فى فصولها على أهم ماله أثر فى أحوال الشرقيين عموما والمسلمين خصوصا » .. ثم أردفت قائلة : « ولا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها للمسلمين بالذكر أحيانا ، ومدافعتها عن حقوقهم تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم فى أوطانهم .. فليس هذا من شأننا ، ولا بما غفل إليه ، ولا يبيحه ديننا ، ولا تسمع به شريعتنا .. وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر الغالب فى الأقطار التى غديرها الأجنيون... » (١) ..

فالجامعة الشرقية هى جامعة الأغلبية المسلمة ، التى تتعرض لغزو الحضارة الغربية .. ووصفها بالإسلامية - الجامعة الإسلامية - لا يغير وصفها بالشرقية بحال من الأحوال ..

(١) جمال الدين الأفغانى (الأعمال الكاملة) ج ٢ ص ٣٤٤ ، ٣٤٩ ، غرامسة وتحقيق : د . محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٨١ م .

و « الجامعة الشرقية » ، في ثقافة النديم ، تضم أوطانا عدة ، وأجناسا متعددة . . لكن متأخمة أوطانها بعضها لبعض جعلتها « في حكم الوطن الواحد » ، وغلبة التندين بالإسلام على شعوبها قد أصبح رباطا جامعا كاد أن يذيب فواصل الأجناس وحواجزها ، ومكانة العربية - التي هي لسان الدين والتراث - قد جعلتها رباطا جامعا تعلو مكانته على غيرها من اللغات الشرقية . . وكانت الدولة العثمانية - الجامعة لأغلب أقاليم الشرق يومئذ - هي الأخرى عامل توحيد في هذه الجامعة الشرقية . . وذلك فضلا عن التناقض الحضارى والخطر السياسى اللذين مثلتهما الغزوة الغربية ، مما جعل الجامعة الشرقية - في ثقافة النديم - « انسداً للحكم بين الشرق وبين المهتهنين للوثبة على الشرقيين » . .

« فالجامعة الشرقية » ، إذا ، هي دائرة انتماء ثقافى وحضارى : أوسع من الدائرة العربية - القومية - وأعم من الرابطة العثمانية - الإدارية والسياسية . . فهي دائرة حضارية ، تقف في مواجهة الحضارة الغربية الوائبة - بالاستعمار - على الشرق والشرقية والشرقيين . .

ولقد كان لاستخدام النديم مصطلح « الشرقية » ، أكثر من مصطلح « الإسلامية » ، سببا موضوعيا في الظرف السياسى الذى عاش فيه . . فتهمة « التعصب الدينى » كانت - كما سيأتى - فى مقدمة الاتهامات الموجهة إلى الحركة الوطنية المصرية ، وإلى النديم على وجه الخصوص . . الأمر الذى جعل استخدام مصطلح « الجامعة الشرقية » أكثر شيوعا فى الأدبيات التى أبدعها . .

فهو عندما يتحدث عن الروابط التي تربط المصريين بأهل المشرق - الشام - والعرب عموماً ، يخلص - بعد تعداد هذه الروابط - إلى أنهم جميعاً جزء من الجامعة الشرقية ، فيقول : إن « بين المصريين والشاميين والعرب رابطة : اللغة والسلطة في الكل - (أي السلطة العثمانية الجامعة) - والدين في معظمهم ، والجنس في أغلبهم ، والمتاخمة التي تصير المجموع في حكم الوطن الواحد .. وهم يحتاجون إلى الجامعة الشرقية .. سداً معكمابين الشرق وبين المهنيين لتوثيق عليهم » (١) .

وهذه الجامعة الشرقية هي جامعة للأجناس والقوميات الإسلامية ، من المغرب الأقصى إلى الشرق الأقصى ، « ولا يبرء لأهلها من الخبل والهلاسه إلا بمعرفة التركي حق العربي وفضله ، واعتراف العربي بمجد التركي وسيادته ، واتفاق السوري مع المصري ، واتتلاف الهندي باليمنى ، واتحاد العراقي بالفارسي ، وارتباط التونسي بالمراكشي ، وتوجيه نظر المجموع وهمته إلى ما يسمى شرقاً لا ما يسمى جنساً ، فإن حاجتنا إلى توحيد الكلمة حاجة الأعمى إلى من يقطع به الصحراء » (٢) !

والنديم يتحدث عن دور الإسلام في تكوين «جنس مستعرب» غداً أوسع دائرة من «الجنس العربي» الذي كان قبل التدين بالإسلام ، فالتدين بالإسلام قد أقام جوامع : «وحدة الدين» و«الوطن» و«الجامعة السياسية والإدارية» - الدولة - فامتزجت أجناس متعددة ، بفعل هذه «الجوامع الإسلامية» ، لتلد الأمة

(١) (الأستاذ) العدد الثامن عشر . ص ٤٢٠ .

(٢) المصدر السابق . العدد الثامن عشر . ص ٤١٣ .

العربية على امتداد هذا الأفق الجديد والمديد . . « فعند مجيء الدين الإسلامي وانتشاره في أفريقيا وآسيا وبعض أوروبا ، امتزج العرب بالفرس والشاميين والمصريين والترك والقوط وبعض الطليانين والإفرنج والسودان والحبشة والهنديين واليوغور وغيرهم ، وألف بين قلوبهم ، فتوحدت كلمتهم ، وصاهر بعضهم بعضا بجامعة الدين ، ففتح جنس يجنح إلى الأصول بعرق التوليد ، ميل للجامعة بوحدة الدين والوطن والتابعة ، وبكرو الزمان استقل هذا الجنس وصار مستعربا يخالف أصوله ، وقد غلبت عليه المخالطة الوطنية..» (١) .

وكانت مدارس التبشير الكنسية الغربية ، ومعها سلطات الاحتلال الاستعمارية ، قد أخذت في الدعوة إلى «جامعة عربية» منبئة الصلة بالجامعة الإسلامية ، وذلك لاستبعاد دائرة الانتماء الجامعة لشعوب الشرق - وهي دائرة الإسلام . . وعندما يرسل أحد قراء مجلة (الأستاذ) - وهي مسيحي سوري يقيم في مدينة «بطر سبورج» إلى النديم رسالة يمدح سير المجلة على «الخطوة الوطنية العربية» ، يعلق النديم على هذه الرسالة رافضا ومصححا ، فيؤكد أن سياسة (الأستاذ) هي «حفظ الوحدة الشرقية.. لا الجامعة العربية وحدها» فيقول : «ولو قال هذا الفاضل : إننا ننادى بحفظ الوحدة الشرقية ، من عرب وعجم وترك وجركس وكرد وأرمن وغيرهم ، على اختلاف الدين ، لأصاب الغرض ، فإننا ننادى بها ، لا بالجامعة العربية وحدها» (٢) . . فالجامعة العربية ليست نهاية دائرة الانتماء ، وإنما هي واحدة من دوائر الانتماء التي تضمها الجامعة الشرقية . .

(١) المصدر السابق . العدد الثلاثون . ص ٧٠٦ ، ٧٠٧ .

(٢) المصدر السابق . العدد الحادي والأربعون . ص ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ .

بل لقد وضع النديم دعاة فصل أجناس الجامعة الشرقية في معسكر « الأجراء للأجنبى » . حتى وإن ربطتهم بنا الأنساب والقربابات . . « فإذا رأيت مصريا أو سوريا أو تركيا أو هنديا أو فارسيا أو مغربيا يوقع النقرة بينك وبين جنس شرقى ، كأن تكون مصريا وترى شرقيا ينفرك من السوري أو التركى ، فاعلم أنه أجبر يشتغل لغيره . . وأنه أجنبى وإن اتصل بك نسباً وقرباً . . »^(١) .

وكانت الدولة العثمانية أعظم دول الشرق ، والجامع الأكبر فى إطار الجامعة الشرقية ، والسياس الذى يتعلق به الشرقيون اتقاء للخطر الاستعماري الزاحف على ديار الإسلام . . ومن هنا كان تأييد تيار الجامعة الشرقية للدولة العثمانية ، مع المناداة بإصلاح خللها ، والسعى إلى تجديد طاقتها . . كان ذلك موقفا ثابتا لهذا التيار . . والنديم يفصح عن سياسة مجلته ، فيقول : « لقد نادى الأستاذ بالجامعة العثمانية والعصبية الشرقية^(٢) . . وتخليد مجد الدولة العلية ، التى هى مرجع الكلمة الإسلامية ، وإن توزع المسلمون فى أقطار متباعدة ووجد بعضهم تحت سلطة دولة أخرى ، فإنهم جميعا يحترمون مقام الخلافة العظمى ، ويعترفون أن السلطة الأجنبية عارض . . لا يحل رابطة عقدها توحيد الدين فيهم . . »^(٣) .

فدولة الخلافة العثمانية ، قد ظلت ، حتى فى لحظات الضعف ، التى مكنت الاستعمار من اقتطاع العديد من الأقاليم الإسلامية ، ظلت « الحجة القانونية » ضد شرعية الاستعمار لهذه الأقاليم الإسلامية ، والأمل الذى يتعلق به تيار الجامعة الإسلامية بجمع كلمة الشرق فى مواجهة الاستعمار . .

(١) المصدر السابق . العدد السادس عشر . ص ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٢) المصدر السابق . العدد التاسع والثلاثون . ص ٩٣٢ .

(٣) المصدر السابق . العدد الرابع والثلاثون . ص ٧٧٨ ، ٧٧٩ .

ولذلك اقترن تأييد تيار الجامعة الإسلامية للرابطة العثمانية وخلافتها ، دائما وأبدا : بالدعوة إلى إصلاح هذه الدولة وتجديد شبابها .. وعلى درب الأفغانى ومحمد عبده - وكل أعلام هذا التيار - يسير النديم ، الذى صاغ الدعوة إلى إصلاح الدولة العثمانية شعرا ، توجه به إلى السلطان عبد الحميد الثانى (١٢٥٨ هـ - ١٣٣٦ هـ ١٨٤٢ - ١٩١٨ م) قال فيه :

« نبرئ منك الذات عند ظلم أمة	ولكن حواليك القليل به غدر
فَسُنْ لتساوى واحتكم واعف واصطبر	تر الجثث الموتى يحركها النشر
فعندك من أهل السياسة سادة	طبيععتهم حزم وحليتهم حذر
وقد تفعل الأقلام ما لم تصل له	مدافع فى الهيجاء يصحبها النصر
فَرَبُّ الأهالى يا إمام بحكمة	وعلمهم علما يطيب به الشكر
وعَمُر بلادا بانتشار معارف	وإصلاح أرض لا يرى أهلها الضر
ولا تعط شبرا للأجانب واحتفظ	فما بعد ذا إلا التنازع والكر
وأوقف مسير الالتزام لفتية	تراهم رعايا وأجمع لهم مكر
وبث رجال العلم فى كل قرية	لتعليم دين عنده يقف الظفر
ووحّد ضروب الحكم بين رعية	يؤلفها التوحيد ما بقى الدهر
وأبعد جميع الأدعياء فبانهم	يسرون فى طرق يُسَرُّ بها الغير» ^(١)

فالرابطة العثمانية - التى دعا النديم إلى إصلاحها ، وتجديد شبابها - هى دائرة من دوائر الانتماء السياسى والإدارى فى إطار الجامعة الحضارية الشرقية ، التى ضمت وتضم أجناسا وأوطانا ربطت بينها حضارة الإسلام ..

(١) المصدر السابق . العدد الرابع والعشرون . ص ٥٦٦ .

وكذلك الجامع الوطني ، ورابطة الوحدة الوطنية .. هي واحدة من نواتج الانتماء الفرعية التي تضمها الجامعة الشرقية .. ففى الوطن ، تتوطن الجماعة الوطنية ، التي قد تمايز بينها الأصول العرقية والجنسية ، والملل الدينية ، لكن تجمعها الرابطة الوطنية .. ولقد دعا النديب إلى وطنية تجمع بين التعددية الدينية فى الشعائر العبادية والشرائع الدينية ، وبين وحدة ائدولة والقضاء والقانون الإسلامى ، الذى مثل ويمثل جامعا وطنيا وحضاريا لسانر الملل فى ديار الإسلام على مر التاريخ .. فحفظت الوحدة الوطنية فى الاجناس القاطنة فيما يسمى وطنا إنما يكون بتوحيد القضاء والمعاملة ، وتمكين الطوائف من اجراء عاداتهم فى مجامعهم ومعابدهم وأعيادهم ، كل بما هو حق فى معتقده ، جميل فى عاداته ، بلا حرج ولا تضيق^(١) ..

فالقانون الشرعى الإسلامى هو بالنسبة إلى كل الذين استظلوا بالدولة الإسلامية - من المسيحيين والموسويين وأنجوس - جامع وطنى .. فعلى اختلاف مذاهبهم واجناسهم ، شملهم القانون الإسلامى العادل ، وحكم بأنهم مثلنا فى الحقوق الوطنية ، لهم مالنا وعليهم ما علينا .. فتوحدت الجامعة الوطنية بالقانون الشرعى ، الذى يعد ناقضه عاصيا لله تعالى . ورسوله . صلى الله عليه وسلم .. ومع اتصال الحروب مع الدولة الإسلامية والدول المسيحية ، لم يجن أحد على مستوطن أو وطنى ، ولو كان من الأمة المحاربة ، حفظا للجامعة الوطنية التى قررت حرمتها النصوص الشرعية .. فالقواعد الإسلامية تقضى على الأخذيين بها بوجوب المحافظة على الوطن والمستوطن ومعاملته معاملة المثل^(٢) ..

(١) المصدر السابق . العدد الثانى . ص ٢٥

(٢) المصدر السابق . العدد الرابع . ص ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٧ .

ولقد أفاض النديم في الحديث عن الوطنية المصرية .. وهو قد برأ «الوطنية المصرية» من النزعات العرقية والجنسية ، فالمصريون هم الذين استوطنوا مصر ، بصرف النظر عن أصولهم العرقية .. فنحن معاشر المصريين نفتخر بين الأمم بهذه الجامعة التي لا تنحل عقدها ولا يبدد نظامها . ونعني بالمصريين كل وطني من العرب والترك والجر كس . أما العرب فإنهم ساكنوا الأقباط من مبدأ انفتاح الإسلامى إلى الآن فتوغلوا فى الوطنية إلى أمد بعيد . وأما الترك ، فإنهم وإن تأخروا عن العرب فى الاستيطان وتكنهم هجروا بلادهم ، وتعاقبوا الإقامة والداغن والد حتى تسوا بلادهم ، فلو عاد أحدهم إليها لكان أجنبيا فيها ، لطول العهد .. وأما الجر كس ، فإن من ولد منهم فى مصر فتحكمه حكم العرب والترك ، ومن ولد فى غيرها فقد جاءها صغيرا دون سن التمييز فى الغالب ، وربما لا يعرف اسم بلده .. فهم مصريون حقيقيون . والأقسام الثلاثة تجمعهم الرابطة الدينية قبل الجامعة الوطنية . فاعتبارنا الأجناس الثلاثة مع الأقباط مصريين اعتبار صحيح حجته المشاهدة والعيان .. (١)

وكما جمعت الوطنية المصرية كل الذين استوطنوا مصر ، بصرف النظر عن أصولهم الجنسية ، كذلك جمعت هذه الوطنية بين مسيحييها والأغلبية المسلمة فيها .. «فمصر التى نحن فيها: بلاد إسلامية ، مختلطة بقليل من الأقباط الذين تجذبهم الجنسية إلى كثير ممن تولدوا ممن أسلم من سابقهم ، وتدفعهم الوطنية إلى التلاصق بانجموع بجانزية الوطنية والألفة وأصول المعاشرة التى قامت مقام اتحاد الجنس . فهم إخوان الوطنية .. فمصر مخصوصة بجامعة وطنية لم يسمح بمثلها فى الأقطار ، والأمة الإسلامية مع

(١) المصدر السابق . العدد الرابع : ص ٧٨ ، ٧٩ .

الطائفة القبطية كأهل بيت يتعاونون على المعاش، ويتعاونون الأعمال، ويتقاسمون النظر في شئون البلاد، ويتعاضدون على حفظ الوطن من طوارئ العدوان..^(١) ..

فالوحدة الجنسية جامعة للأكثرية المسلمة - التي تولدت من أصلاب المصريين الذين اعتنقوا الإسلام - مع القليل من الأقباط - الذين بقوا على مسيحيتهم .. وهؤلاء المسيحيون الأقباط تجمعهم بكل الجماعة المسلمة في مصر - فضلا عن الجنسية - رابطة الوطنية - النابعة من اتخاذ مصر وطنا للجميع - ورابطة الألفة وأصول المعاشرة ، التي « قامت مقام الوحدة في الأصول الجنسية والعرقية » ..

ولأن العيب بالوحدة الوطنية لمصر والمصريين ، كان هدفا من أهداف الاستعمار الإنجليزي وصحافة « الأجراء والعملاء » ، التي نازلتها مجلة (الأستاذ) ، وتصدى لها النديم .. فلقد سعى الرجل إلى تحصيل هذه الوحدة الوطنية المصرية من هذا العيب ، لتظل متفردة « لم يسمع بمثلها في البلاد » .. ولتحقيق هذا المقصد الوطنى النبيل دعا عبد الله النديم إلى إقامة «جمعية مصرية» ، متميزة عن الجمعيات الخيرية - الإسلامية والقبطية - تكون مهمتها الحفاظ على الوحدة الوطنية ، وتنمية أواصرها ، وذلك « بالبحث في الوطن وخصائصه وواجباته وضروريات حياته .. فكتب يقول : « ولكننا نحب أن نتردد علاقات الوطنية بعقد جمعية مصرية ، موضوعها : البحث في الوطن وخصائصه وواجباته وضروريات حياته ، ولا تخرج في هذا كله عن الأدبيات ، والمحافظة على ما بين

(١) المصدر السابق . العدد الثلاثون . ص ٧١١ . والعدد الحادى والثلاثون . ص

٧٤٩ . والعدد الرابع . ص ٧٥ .

المصريين وغيرهم من روابط المحبة . فقد رأينا كل جنس له جمعيات وطنية ، ونحن لاجمعية لنا تبحت في الوطنية ، فإن الجمعية الخيرية الإسلامية والجمعية القبطية لاتعلق لكل منهما بما نحن في صده ، فإنهما جمعيتا إعانة وتربية أيتام . ولا يشك عاقل في أن تكوين جمعية من الفريقين يفيدهما فوائد جمعة ، ويحول بينهما وبين النزعات الأجنبية .. نريد جمعية تحفظ النظام الوطنى بمساعيها الأدبية وما يترتب عليها من تطهير البواطن وتوحيد الكلمة ^(١) ..

كتب النديم ذلك قبل نحو عقدين من النجاح الجزئى الذى أحرزه الاستعمار وعملاؤه فى العبث بوحدة الوطنية المصرية .. وهو العبث الذى تصدى له وطوق مخططاته عقلاء المسلمين والمسيحيين .. أولئك الذين دعا النديم إلى إقامة «جمعية عصرية» تضمهم « للبحث فى الوطن وخصائصه وواجباته وضروريات حياته .. والحفاظ على النظام الوطنى والحيلولة بين النزعات الأجنبية وبين فرقاء الجامعة الوطنية المصرية » ! .. وهى دعوة لازالت تنتظر التحقيق والتطبيق ؟ ..

* * *

هكذا تبدت دوائر الانتماء فى ثقافة النديم : جامعة شرقية ، تميزها الحضارة الإسلامية ، تقوم ، بالنسبة لأجناس الشرق وملته وأوطانه ، « سدا محكما بين الشرق وبين المتهيين للوثبة عليهم » - بعبارة النديم .. وهى جامع أكبر يحتضن الجوامع الفرعية ، التى تتأزر وتساند فى إطار هذا الجامع الكبير .

(١) المصدر السابق ، العدد الحادى والثلاثون . ص ٧٥٠ .

مقومات الانتماء .. والنهوض :♦

يعترف النديم بدور « الغرب » في إيقاظ « الشرق » . . لكن ليس بالمعنى الذى يتحدث عنه « الأجراء » ، من رغبة الغرب فى إيقاظ الشرق ، أو سعى الشرقيين - منذ الاحتكاك بالغرب - إلى تبني النموذج الغربى وتقليده . . وإنما بمعنى إيقاظ النقيض لنقيضه، ودور العدو فى التنبيه على الثغرات ومكامن الخطر، و« فضل » اللص فى إيقاظ أصحاب البيت من سباتهم العميق ! . . .

فأغرب - بعد الهجمة الاستعمارية على الشرق - قد نهض بدور « المستفز » الذى استنفر الشرقيين للاستيقاظ ! . . . فلقد أثرت حركات أوروبا فى معظم شيوخ هذا العصر وشبابه ، فتحركت فيهم هموم وغيرة وحمية لم تكن تظن فيهم لو لم تقبح أوروبا سيرهم ائدىنى والدينى ، فقابلوا بين نهيمها عن التظاهر بالشعائر الدينية وبذلها النفس والنفس فى حياة الدين والدعوة إليه بث المرسلين وتكثير المعابد ، فتولدت فيهم روح المماثلة ، فأصبحوا يقولون وغدوا يفعلون .. (١) !

لقد استفز الغرب الشرق ، عندما قبح سيرنا الدينى والدينى . وعندما دعانا إلى التخلّى عن ديننا فى الوقت الذى كان يهجم علينا بإرساليات التنصير وبناء الكنائس والمدارس التى تسعى لتحويل أبنائنا - مسلمين ونصارى - عن دينهم . . فكان أن تحركت الهمم والغيرة والحمية ، بسبب هذا الاستفزاز الغربى ، و« تولدت روح المماثلة » - لا التبعية لما أراد الغرب - وتبلور لليقظة الشرقية تيار من الشيوخ والشباب « أصبحوا يقولون وغدوا يفعلون » ! . . .

(١) المصدر السابق . العدد الثامن عشر - ص ٤١٩ ، ٤٢٠ .

والنديم يُحدث تيار اليقظة الشرقية عن مقومات الانتماء ، وعن ثوابت النهوض ، التى لايجوز التفريط فيها ولا التنازل عنها تقليدا للأوروبيين .. وهى ست مقومات :

١ - حفظ المظهر والوجاهة ..

٢ - وحفظ الثروة ، من صناعة وتجارة ..

٣ - وحفظ الوطنية ، وحقوقها وواجبات أهلها ..

٤ - وحفظ الجنسية ، بعدم التقليد والاتباع لمحسنات الغير ومجاراته فى أقواله وأفعاله ..

٥ - وحفظ اللغة ، التى هى أداة الحفاظ على الأخلاق وتحسين العادات والمأثورات ..

٦ - وحفظ الدين ، الذى يمثل حفظه الجامعة الحافظة لكل مقومات الانتماء ، من الوجاهة والثروة والوطنية والجنسية واللغة ..

وينبه النديم فى حديثه عن هذه المقومات ، على الثوابت منها ، والتى لايجوز تغييرها حتى ولو اقتضى التغيير تحقيق منافع مادية ودينية .. وهذه الثوابت هى الدين ، والجنسية - القومية - والوطنية .. وفى ذلك يقول : « ينبغى لمن يغير عاداته بعادة الغير أن ينظر فى أصل عاداته وفوائدها ومضارها ، ثم فى عادة الغير كذلك ، فإن رأى حسن عاداته ، وأنها من لوازم حفظ المظهر ، أو الثروة ، أو الوطنية ، أو الجنسية ، أو اللغة أو الدين لزمه البقاء عليها وإن لم تحسن فى عين الخليلط ، وإن رآها مضرّة بذاته أو وطنه أو الهيئة الاجتماعية غير منها مالا يفقده الاعتقاد الدينى والشعور الجنسى والغيرة الوطنية .. »

فإن انتقل من عاداته بلا روية ولا نظر للعواقب فقد ستم ذاته لمن
انتقل لعاداته بلا حرب ، ويعز عليه الرجوع لجنسيته ووطنيته
وخصائص أمته بعد نسيانه ما هي عليه من العادات ومثلها من
الأخلاق .

فالتخلي عن مقومات الشخصية الحضارية ، بتقليد الغير ، هو
«تسليم للذات بلا حرب» I . . كما يقول النديم . .

وإذا كان النديم قد نبه على إمكان تغيير العادات « المضرّة بالذات
والوطن والهيئة الاجتماعية » فإنه قد اشترط أن لا يس هذا التغيير
ثوابت الهوية الحضارية : « الاعتقاد الديني ، والشعور الجنسي
(القومى) ، والغيرة الوطنية » . . كما نبه على محورية الدين فى
ثوابت هذه الهوية الحضارية ، لأن الإنسان « إذا تهاون فى أحوال دينه
وفروعه هان عليه التقاعد عن نصره أهله ، الجامعة لما تشنت من أوجهه
والثروة والوطنية والجنسية واللغة ، . . فكأنما أخفاظ على الدين هو
الجامع الحافظ لكل مقومات الانتماء . . وذلك - بعبارة النديم - «
لسرى الجاذبية الدينية فى الجسم سرى الماء فى العود . . حتى
لنرى مقيما فى الشرق يتألم بمصاب دينه فى الغرب ، وليس بينه
وبينه جامعة وطن أو جنس أو لغة . . » . . وإذا فقد الإنسان جامعة
الدين « بتقليد الغير فقد استخدم نفسه لأفكار الغير ، حتى لو اضطره
لمقاتلة أبيه وأخيه معه لفعل ، لاستقباحه ما هم عليه واستحسانه ما
عليه الغير » (١) .

حدد النديم هذه المقومات للهوية الحضارية فى أول عدد من
أعداد مجلة (الأستاذ) ، وظل يلج عليها فى كل الأعداد . .

(١) المصدر السابق . العدد الأول . ص ١٢ - ١٤ .

● فالدين الإسلامي « هو مرجع المجد وأصل الشرف... »^(١) ..وهو أقوى دعائم العمران^(٢) .. والسبب الوحيد في المدنية وتوسيع العمران، أيام كان الناس عاملين بأحكامه...^(٣) .. وليس هناك حبل متين تقاد به الأمم غير الدين...^(٤) .

ولذلك ، يتصدى النديم لمزاعم غلاة الأوروبيين الذين يزعمون أن الإسلام هو سبب تخلف المسلمين ، كاشفا عن دوافع التعصب الدينى التى تدفعهم إلى هذه المزاعم .. وفاضحا « الأجراء » و«العملاء» - من «الطائرين حول دهاة أوروبا» ! الذين يبشرون بيننا بهذه المفتريات .. فيقول : « .. ومنهم القائلون إن الدين الإسلامى مانع من التقدم .. وأصحاب هذا القول كالبيغاء .. فقد قلدوا فى هذا الوهم أوروبا فى قوله الذى طارت به الصحف^(٥) .. وفاتهم أن الشرق ممتلئ بأديان تغاير الإسلام ، والآخذون بها أضعاف الآخذين بالإسلام ، ومع ذلك فإن تقهقرهم أكثر من المسلمين ، وحالهم أحط من المسلمين بدرجات .. » .

كما يفند النديم دعوى هذا الزعيم الأوروبى المتعصب ، بأن الإسلام هو سبب تعصب المسلمين دينيا ضد الغربيين .. « فدعوى هذا الأوروبى أن الإسلام سبب حركات الشرق ضد الغرب ، وأنه لا سكون للأفكار إلا بإعدام القرآن والآخذين به (١٩) - مدحوضة بأخروب المتواصلة بين دول أوروبا المسيحية من عهد الرومانيين إلى

(١) المصدر السابق . العدد الثانى والعشرون . ص ٥١٩ .

(٢) المصدر السابق . العدد الخامس والعشرون . ص ٥٩٣ .

(٣) المصدر السابق . العدد الخامس عشر . ص ٣٥٢ .

(٤) المصدر السابق . العدد السابع عشر . ص ٣٩٤ .

(٥) الإشارة إلى السياسى الاستعمارى الإنجليزى ولیم غلاستون (١٨٠٩ - ١٨٩٨م) .

الآن ، وكلما كثرَت مدنية دولة أوروبية كثرَت تفننها في آلات القتال والتدمير ، مع سكون الشرق هذه القرون الطويلة ، لا يتحرك إلا دفاعا عن وطنه الموطوء بأقدام أوروبا الملوثة بالدماء الشرقية ، ولا يحركه إلا فتنة أوروبية ، ولا داعي لأوروبا في تحريك الممالك الشرقية إلا الطمع الملكي والتعصب الديني .

وإنما لشدة تمسك هذا الأوروبي بدينه ، كره أن يرى ديناً غيره . وأحب أن يسمع صدى صوته في بلاده ، لتميل النفوس إلى رجل غيور على الدين .

وقد كان للإسلام اليد القوية أيام صولته ، فلم يبطش بها بمواطنيه ولا مدها إلى معاهديه ، بل ولا حرك بها عصاه نحو المتوحشين عند نزولهم على حكمه تحت سطوة سلطانه . ولم يكن عند رجاله من التعصب ما يحملهم على قهر الناس بالتضييق على ترك أديانهم ، بل خيّر من نازلهم بين الأخذ به أو الاستيطان على حكمه ، وهذه خصوصية له من بين الأديان . . .

فلم يكن الإسلام ، ولا الأديان الشرقية السبب في التأخر كما يزعم كثير من الطائرين حول دهشة أوروبا ، بل إن الدين الإسلامي كان السبب الوحيد في المدنية وتوسيع العمران أيام كان الناس عاملين بأحكامه... (١)

وكما انتقد النديم دهشة أوروبا ، المتعصبين لدينهم ضد الإسلام ، انتقد كذلك الماديين الأوروبيين الذين يرون « أن الأديان هي سبب التخاذل الحاصل في العالم ، ولا سبيل لمنعه إلا تركها جملة وإعدامها من الوجود » ! . . . ووجه حديثه إلى « الأجراء » « المقلدين »

(١) (الأستاذ) - العدد الخامس عشر - ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٥٢ .

من أبناء أمتنا ، الذين كانوا ينقلون هذه النظريات الأوروبية وينشرونها في بلادنا . . . فهذا الفريق مقلد لدهاة أوروبا ، الذين أفسدوا كثيرا من الأخلاق الشرقية بهذه الترهات والأوهام . مع أننا لو فرضنا عدم صحة الأديان ، وأنها وضعت نظامات في أيام الخشونة والجهالة ، ولا لزوم لها الآن مع وجود القوانين الوضعية ، لكان من الواجب احترامها واعتبارها ، فإن تأثير وعدها ووعدتها في النفوس لا يبلغه قانون ، فإن الشخص يمكنه أن يفر من عقوبة القانون ، ولكنه لا يمكنه أن يفر من عقوبة الله . وما ساعد الملوك على النظام وبث الأمن إلا القانون الديني . . والدين هو الذي يحمل العسكري على بيع حياته . . ولو علم أن لا بعث ولا أجر على عمله لفر من ساحة القتال ، فإن أرغم قاتل مكرها . ولا يقال إن الشرف الوطني يلزمه باقتحام غمرات الموت ، فإنه إذا علم أنه يقدم للموت ليفوز الملك أو الأمير بمراذه ، ولا ثواب ولا نعيم ، فإنه لا يبيع حياته بلذة غيره» (١) . .

وهكذا ، يقف النديم عد قعبا عن الإسلام ، وعن مطلق الدين والتدين ، أمام الفكر الأوروبي ، الذي تنشره في بلادنا صحافة « الأجراء » و « المقلدين ل هاة أوروبا » و « الطائرين حول هؤلاء الدهاة » ، سواء أكان هذا الفكر الأوروبي تعصبا نصرانيا ضد الإسلام ، أم مادية رافضة لمطلق الدين . .

والنديم الذي عاش في عصر « المسألة الشرقية » ، والصراع الأوروبي مع الدولة العثمانية : قد أبصر مكانة الإسلام في هذا الصراع . . فعداء أوروبا لهذه الدولة العثمانية كان منطلقه العداء

(١) المصدر السابق ، العدد الخامس عشر ، ص ٣٣٩ ، ٣٤٠ .

للإسلام ، الذى يحول بين الغرب وبين تنصير المسلمين ، والذى يحمى الشرق من الاستسلام لهيمنة الغرب ونهبه واستغلاله . .
«ولو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة .. ولكن المغامرة الدينية وسعى أوروبا فى تلاشى الدين الإسلامى أوجب هذا التحامل».

ويوجه النديم قوارص الكلمات إلى تيار التقليد لأوروبا ، الذى احترفت صحافته ذم الدولة العثمانية ، فيقول : « وإنا نرى كثيرا من المغفلين الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا يذمون الدولة العلية ، ويرمونها بالعجز وعدم التبصر وسوء الإدارة وقسوة الأحكام ، ولو أنصفوها لقالوا إنها أعظم الدول ثباتا وأحسنها تبصرا وأقواها عزمة ، فإنها فى نقطة ينصب إليها تيار أوروبا العدوانى ، لأنها دولة واحدة إسلامية بين ثمانى عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا ، وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان ، وكثير من اللغات ، والفتن متواصلة من رجال أوروبا إلى من يماثلهم مذهبا أو يقرب منهم جنسا..^(١) !

فالنديم الذى سبق وأوردنا له الشواهد على دعوته لإصلاح الدولة العثمانية ، وتجديد شباب إدارتها ، هو الذى يسفه هنا دعاوى «المغفلين» الذين حنكتهم قوابلهم باسم أوروبا ! ضد الدولة العثمانية ، لأنها دعاوى معادية لهذه الدولة ، لحساب الرصيد الاستعمارى الأوروبى ، وليست دعوات للإصلاح تستهدف تقوية السياج العثمانى لحماية للشرق وحضارته فى الصراع مع الأوروبيين . كما كان حال وموقف النديم وتيار الجامعة الإسلامية إزاء العثمانية والعثمانيين . .

(١) المصدر السابق . العدد الثانى والعشرون . ص ٥١٣ .

هذا عن الدين - والدين الإسلامى على وجه الخصوص -
كثابت من ثواب الهوية الحضارية الشرقية . . فهو « أقوى دعائم
العمران . . والسبب الوحيد فى المدنية . . ومرجع الجهد وأصل
الشرف . . الذى تسرى جاذبيته فى الجسم سرى الماء فى العود» . .

● وذات المكانة التى أحلّها النديم للدين فى ثواب الهوية
الحضارية ، أحلّها اللغة العربية . . «اللسان العربى» (عنده) هو لسان
الدين ، وترجمان الوطن . . واللغة العربية مرتبطة بالدين ارتباط الروح
بالجسد ، وإذا فقدت الأمة لغتها فقدت الدين والتاريخ الوطنى . . (١)

وإذا كان النديم قد رأى فى « الدين » و « الجنسية » و « الوطنية »
ثواب الهوية الحضارية التى لا يجوز المساس بها - حتى ولو اقتضت
« المنافع » هذا المساس - فلقد رأى اللغة العربية ثابتاً من هذه
الثواب ، لأنها « لسان الدين » و « ترجمان الوطن » و « عنوان الجامع
للجنسية الحافظة له ، فالمحافظة على اللغة محافظة على الجنسية ، بل
وعلى الملك وما يشتمل عليه ، ولهذا لا تميل أى دولة لنقل التعاليم
من لغتها إلى لغة أخرى مهما مست الحاجة إليها ، ولا تعطى
شهادة لتلميذ أدى الامتحان فى جميع العلوم بغير لغته مهما كان
تمكنه من اللغة الأجنبية عن لغته ، وبهذه الوسيلة حفظت مقاصد
الدول ، وامتازت كل أمة بخصائصها التى حفظتها لها لغتها . . (٢)
فاللغة هى البوعاء الحافظ للخصائص التى تمتاز بها الأمة عن الأمم
الأخرى . . وهى فى حال لغتنا العربية ، تزيد ، لأنها هى لسان
الإسلام ، الجامع الأكبر لكل مقومات الانتماء الحضارى .

(١) المصدر السابق . العدد الخامس والعشرون . ص ٥٩٣ . والعدد الثامن . ص ١٧٩ .

(٢) المصدر السابق . العدد التاسع . ص ٢٠٤ .

ولأن هذه هي مكانة العربية من ثوابت الهوية الحضارية ، فلقد تكالبت عليها التحديات . . وكان النديم واحداً من الذين تصدوا لهذه التحديات . . « فلغتفا الثمريفة ، التي يتكلم بها الآن - (١٣١٠ هـ - ١٨٩٢ م) - أكثر من مائة مليون من الناس ، يسعى كثير من الناس - المحبين للغاتهم أو لذاتهم - في إماتة هذه اللغة ، وتحويل هذه الألسنة عن التكلم بها إلى التكلم بغيرها ، فنفقد بفقدائها النجد والشرف معا . . » (١) . .

وفي مقدمة التحديات اللغوية للعربية ، التي تصدى لها قلم النديم :

١ - تحدى اللغة التركية ، في الولايات العربية التي حكمها العثمانيون . .

٢ - وتحدى اللغات الأوروبية الزاحفة على الشرق العربي ، في ركاب الاستعمار ومدارس التنصير . .

٣ - وتحدى اللغة العاصية ، التي يتوسل بها الاستعمار وعملاؤه من الأجراء سبيلاً لإزاحة العربية من ثوابت الهوية الحضارية ، تمهيداً لإزاحة الإسلام والقرآن والتراث ، لتفقد الأمة عوامل استعصائها على التبعية والذوبان في حضارة الغزاة . .

ينبه النديم على دور تتركب أجهزة الإدارة بالولايات العربية العثمانية ، في تقهقر اللغة العربية . . فلقد كان استعمال اللغة التركية في الخيارات الرسمية من أسباب تقهقر اللغة العربية . . ولولا وجود الأزهر بمصر لعدمت اللغة العربية في تلك الفترة التي حكمت فيها الدولة العثمانية البلاد العربية . . » (٢) . .

(١) المصدر السابق - العدد الثامن - ص ١٦٩ .

(٢) المصدر السابق - العدد الثامن - ص ١٧٦ .

ويشيد بتجربة مصر الحديثة ، التي تعربت إدارتها ، وبذور الأزهر ، ومكانة القرآن ، في استعادة العربية لعافيتها في هذه التجربة المصرية . . . « فلما تركت الأقلام التركية ، وصارت الحُرُرات الرسمية كلها عربية ، تقدمت اللغة تقدما غريبا ، ونبع ألوف من المتعلمين في الأزهر والمدارس . . . وكان لتقدم أهل الأزهر على أهل المدارس في الإنشاء سبب واحد هو حفظ الأزهريين للقرآن الكريم في الصغر ، فذهن الواحد منهم محشو بمادة البلاغة وقاموس الفصاحة وأبدع أسلوب إنشائي . . . »^(١) . . .

ولذلك ، فهو يدعو إلى تعريب إدارات الدولة العثمانية في الولايات العربية ، وذلك « بتعليم أفراد من أبناء الترك والكرد والجرس بالغة العربية ، ليكونوا مؤهلين لولاية الأقضية والولايات العربية في الشام والعراق واليمن والحجاز . . . فحياة اللغة العربية في بني الترك خصوصا وفي بني العرب عموما حياة للدولة من طريق معنوي »^(٢) . . .

أما تحدي اللغات الأوروبية للغتنا العربية ، فلقد نبه النديم على مسالكة متعددة ، ومنها تهجين العربية بالكلمات الأجنبية . . . وجعل هذه اللغات الأجنبية هي لغة التعليم في بلادنا . . . والدونية التي تجعلنا نتعلم لغات الأجانب لنتخاطب وإياهم بها في بلادنا ، بدلا من أن نجعلهم يتعلمون لغتنا كضرورة من ضرورات تعاملهم معنا في أوطاننا ، مع جعل تعلمنا للغات الأجنبية سبيلا لترجمة ما لدى الآخرين من علوم نحتاج إليها . . .

(١) المصدر السابق . العدد الثامن . ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

(٢) المصدر السابق . العدد الثامن . ص ١٨٣ .

يعرض النديم لهذه التحديات اللغوية : فيقول : « .. ولا يرجع باللغة القهقري إلا أمران :

الأول : كثرة استراق الكلمات الأجنبية واستعمالها في مخاطباتنا الكتابية والخطابية ..

والثاني : نقل التدريس من اللغة العربية إلى أية لغة أجنبية ، فمتى حصل هذا في أية أمة فقد فقدت لغتها وتبعها الدين والتاريخ الوطني ، فإن اللغة مرتبطة بالدين ارتباط الروح بالجسد .. فيجب توحيد التعليم ، لنلاطلع الأبناء لأهم مصريون ولا أجانب ، ويكوّنون من هذا الامتزاج العجيب لغة جديدة لا قاعدة لها ولا ضابط ، ويعز على الآتي بعدنا أن يعرف دينه أو كتابه لاحتياجه إلى مترجم يترجم له العربية إذ ذاك...»^(١) !

أما تصدى النديم لتحدى العامية للفصحى - والتي يسميها اللغة الصحيحة - فلقد يبدو غريباً على الذين اشتهر لديهم النديم «كأدبائى» ، ناظم بالعامية ، تفوق في هذا الفن على أساطينه ومحترفيه .. ذلك أن الرجل كان يتوسل - فى الصحف التى يصدرها - بفصول مكتوبة بالعامية - اللغة الدارجة - إلى الذين لا يقدرون على مطالعة الفصحى أو فهمها ، ولا يرغبون فى القراءة بها ، وذلك ارتقاء بهم - بواسطة السماع - نحو القراءة بالفصحى وفهمها ، وبلوغاً إلى حيث نستغنى عن العامية كل الاستغناء .. وهو يفصح عن منهجه هذا ، وعن مقصده ، وهو يتحدث عن موقف مجلته (الأستاذ) من هذا الأمر ، فيقول : « إنها تشتمل

(١) المصدر السابق . العدد الثامن . ص ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٣ .

على فصل قصير باللغة الدارجة ، لنحوك به العاصي الجاهل من كراهة سماع انكتب إلى محبتها ، فينجر به الأمر إلى سماع الكلام الصحيح ، وهناك لا يلزم كتابة غير الصحيح فاللغة الصحيحة هي الحية ، لاستعمالها بين الخاص والعام من عقلاء الأمة ، واللغة الدارجة هي الميتة ، لعدم استعمالها في غير الضرورات التي يقتضيها الحيوان بلالفة...» (١)

ولأن هذا هو موقف النديم ، مع الفصحى - الصحيحة .. الحية - لا مع العامية - الدارجة .. الميتة ، كان صراعه ضد دعاة إحلال العامية محل الفصحى موقفا ثابتا على مر حياته الفكرية والصحفية ..

ففي يونيو سنة ١٨٨١ م كتب في جريدته (التنكيث والتبكيث) مقالا اتخذ له عنوانا ذا دلالة عميقة في الدفاع عن العربية . والتنبية على مكانتها في ثوابت الهوية الحضارية - وهو عنوان : «إضاعة اللغة تسليم للذات» ! .. ويومئذ دارت معركة فكرية بين حراس العربية - النديم ، ومعه أحمد أفندي سمير وإبراهيم أفندي الهلباوى - وبين واحد من خريجي مدارس التنصير والتغريب هو أمين شميل (١٢٤٣ - ١٣١٥ هـ - ١٨٢٨ - ١٨٩٧ م) - الذي استوطن مصر مع شقيقه شبلى شميل (١٢٧٦ - ١٣٣٥ هـ - ١٨٦٠ - ١٩١٧) منخرطين في تيار التبشير بالحضارة الغربية بديلا للحضارة الإسلامية ، من خلال المنابر الثقافية والإعلامية ، كالمقطف .. والمقطم .. وجريدة الحقوق - التي أصدرها أمين شميل ..

(١) المصدر السابق . العدد العشرون . ص ٤٦٨ ، ٤٧١ .

وفي تسعينيات القرن التاسع عشر الميلادى - ومرحلة إصدار
 النديم لمجلة (الأستاذ) - تجدد جهاده دفاعاً عن الفصحى ،
 الصحيحة الحية ، ضد دعاة العامية ، الدارجة الميتة ، بمناسبة
 تزعم المهندس الإنجليزي المستر «وليم ويلكوكس» (١٨٥٢ - ١٩٣٢)
 الدعوة إلى استبدال المصريين العامية بالفصحى . . . وعن هذه المعارك
 اللغوية ، يحدثنا النديم فيقول : « لقد سبق وكتبنا فى العدد الثانى من
 جريدة « التنكيث والتبكيث » فصلاً تحت عنوان : « إضاعة اللغة
 تسليم للذات » ، فعارضنا فيه الفاضل الكاتب أمين أفندى شميل
 برسالة تبادل الجدل معه بسببها أحمد أفندى سمير وإبراهيم أفندى
 الهلباوى . . . والآن رأينا دعوى المستر ولیم ويلكوكس التى مؤداها أن
 المصريين لا توجد فيهم قوة الاختراع ، ولا مانع لهم إلا اللغة
 الصحيحة : وأنه إذا تحولت الأفكار وحتمت استعمال اللغة الدارجة
 فى المحاطبات والتكليف العلمية والتدريس أمكن المصريين أن
 يخترعوا . . . فرجعنا إلى رسالة أمين أفندى شميل ، وقلنا : ما أشبه
 الليلة بالبارحة ! . . . »

ثم كشف النديم عن المقاصد الحقيقية من وراء الدعوة إلى إحلال
 العامية محل الفصحى - لغة القرآن الكريم . . . إنها قطع صلة الأمة
 بالقرآن مصادر عقيدتها وشريعتها . وصبغة حضارتها - « فالعربية بها
 نزل القرآن الشريف ، الذى هو الآية الكبرى والحجة العظمى لنا معاصر
 المسلمين ، فهو الداعى لحياة اللغة العربية الصحيحة ، وهو المقصود
 لكل معارب للغة ، ساع فى إماتتها . . . وماذا نصنع بكتبنا ، التى تجل عن
 الحصر ، إذا تكلمنا باللغة الميتة العامية ؟ أنعرقها ؟ أم نترجمها بالكلام الفارغ ؟
 وإذا لم تكتب الإنكليز كتبهم العلمية وجراندتهم باللغة الدارجة عندهم ،

تعميما للفائدة التي تريد أن تعممها في مصر؟ وهل ترى أن المصريين إذا قرءوا القرآن باللغة العامية، عند استعمالها ونسيان غيرها، أيرضى عنهم المسلمون؟ أم يبعدونهم منهم؟ وهم يعتقدون أن تغيير حرف منه أو تقديمه على ما قبله كفر مخرج للفاعل من الدين؟» (١) ..

فالدعوة إلى العامية : معادا للقرآن ، وسلخ للأمة عن دينها ، وقطيعة معرفية مع تراثها وتاريخها وهويتها الحضارية وعزل لمصر عن الجسد الإسلامي الكبير ..

ومقصد آخر من مقاصد الداعين إلى العامية - من الإنجليز والأجراء الساعين إلى إحلال الحضارة الغربية محل الحضارة الإسلامية - هو تأييد التبعية للاستعمار في بلادنا . . . ذلك أن تميزنا اللغوي هو دافع من دوافع حركتنا للتحرر من الاستعمار . . «وكم من أمم خضعت لأمم أعظم منها قوة وأشد منها بطشا، وبقيت محافظة على لغتها، طبعتها إلى الاستقلال وعزة الملك ، كالترك والفرس واليونان وأسيانيا وروسانيا واليورتغال والبلغار ، ولو تركوا لغتهم ، واستعملوا اللغة الحاكمة ، ماتت وتجنسوا بالجنسية المتغلبة» (٢) ..

وإذا كانت هذه الأُمم قد اعتصمت بلغتها ، كجامع جنسى (قومي) ، فإن العربية بالنسبة لأمتنا هي أكبر وأعظم من الجامع الجنسي والقومي . . . فالتهاون فيها « ينسينا القرآن ، الذي لو ترجم بأفصح لغة أجنبية لجاء عبارة عن حكاية يقتدر على إنشائها أي كاتب ، ولضاعت بلاغته العربية . . فبقاء العربية انفصحي هو

(١) المصدر السابق . العدد العشرون . ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٦ .

(٢) المصدر السابق . العدد العشرون . ص ٤٦٩ .

بقاء الدين والجنس معا .. وحاجتنا الدينية إلى لغتنا أشد من حاجة الأمم غير المسلمة إلى لغاتها ، فإن الإنجيل لما ترجم تناولوه كما تناولوا الأصل ، والقرآن لو ترجم بلغة أخرى لعجزت الترجمة عن أداء مفهومه ومنطوقه .. »^(١) ..

* * *

وفى التصدى لمزاعم عجز العربية عن أن تكون لغة العلم الحديث ، لم يقف النديم ، فى دحض هذه المزاعم ، عند الاستشهاد بالتاريخ ، الذى نهضت فيه بلغة العلم القديم ، وإنما استشهد أيضا بتجربة مصر الحديثة ، على عهد محمد على باشا (١١٨٤ - ١٢٦٥ هـ - ١٧٧٠ - ١٨٤٩ م) والحقبة السابقة على فرض اللغات الأجنبية على مدارس مصر - (١٨٩٢ م) بقوة الاحتلال .. « فهذه المدارس المصرية ، قرئت فيها العلوم القديمة والحديثة ، الأصلية والمترجمة ، ولم يفتها شيء مما كتب فى أوروبا ، ولم تتغير كيفية التدريس من اللغة العربية إلى اللغة الفرنسية أو الإنكليزية فى بعض العلوم إلا فى هذه السنة - (سنة ١٨٩٢ م) .. وما هو الموجب لتعليم مثل التاريخ والطب والهندسة والجغرافية باللغات الأجنبية ، والمتعلم سيستخدم بين من لا يعرفون كلمة أجنبية ، وهم فلاحو مصر وعوامها ، والكتب العربية فى هذه الفنون توجد أحمالا فى المخازن ، فأى ضرورة تلجئنا لتركها وشراء غيرها بلغة أخرى ؟! .. إن نقل التعليم من لغة البلاد إلى لغة أجنبية هو نقل للتلميذ من الجنسية والدين معا ! .. »

(١) المصدر السابق ، العدد العشرون - ص ٤٧٠ ، ٤٧١ .

ثم تنبأ النديم باندحار كل هذه الدعوات ، التى تمثل تحديات دينية وقومية للعربية ، فقال : «إننا نعلم علم اليقين أنه لو ظهر ألف داع ، بل مئات ألوف من دعاة أوروبا لاستعمال لغة تمت لغة القرآن ما وجدوا أذنا سامعة..»^(١) !

ولم يكن النديم داعية للجهل باللغات الأجنبية .. وإنما كان داعية لإتقان العربية كى نستطيع أن ننتفع بما نتعلم من لغات أجنبية فى الترجمة التى تطلعنا على ما نحتاج مما لدى الآخرين «فالغرض إنما هو تعريب اللغة الأجنبية بعبارة عربية ، وعكسه - (أى الترجمة من العربية إلى غيرها) - حتى تجتلب المنافع وتبادل الفكر ، ولا ريب أن العاجز عن اللغة العربية لا يقدر على ذلك ، اللهم إلا بعبارة منسوخة المعنى خالية من الثمرة ..»^(٢) . . «ولو فرضنا وتعلمنا اللغات الأجنبية ، وتكلمنا بها عند الحاجة إليها ، لوجب علينا أن نحافظ على لغتنا العربية ونستعملها فى معاملتنا الخاصة بنا وبين أبنائنا وأهلينا وفى كتب ديننا وعلومنا الأصلية والفرعية ، لبقاء الدين والجنس ببقائها ..»^(٣) .

* * *

ولم يقف جهاد النديم فى سبيل العربية عند التصدى للتحديات المحددة لوجودها - التركية .. والعامية .. واللغات الأجنبية الغربية - وإنما مد أفاق هذا الجهاد ليشمل الدعوة إلى النهوض بلغة القرآن الكريم ، وذلك لتفى باحتياجات النهضة الحديثة ، وتكون قادرة على منازلة التحديات اللغوية ، والانتصار عليها .

(١) المصدر السابق . العدد العشرون . ص ٤٧٣ - ٤٧٥ .

(٢) المصدر السابق . العدد الخامس والعشرون . ص ٥٩٤ .

(٣) المصدر السابق . العدد العشرون . ص ٤٧١ .

فهو يحتفى بتأسيس « مجتمع اللغة العربية بمصر » (١٣١٠ هـ - ١٨٩٣ م) - برئاسة السيد توفيق البكرى - (١٢٨٧ - ١٣٥١ هـ - ١٨٧٠ - ١٩٣٢ م) الذى سبق ودعا إلى إنشائه المرحوم عبد الله باشا فكرى (١٢٥٠ - ١٣٠٦ هـ - ١٨٣٤ - ١٨٨٩ م) - ويشير إلى سابق دعوته هو إلى إنشائه (١٢٩٨ هـ - ١٨٨١ م) بمقاله الذى نشره فى (التنكيث والتبكيث) تحت عنوان « إضاعة اللغة تسليم للذات » ^(١) .

ويسهم النديم - إسهام العالم الخبير - بتقديم المقترحات الفنية والتنظيمية إلى « مجتمع اللغة العربية » الوليد . . فهو يقترح له تنظيمًا شاملاً مختلف التخصصات : بحيث يكون « المجتمع - (المجمع) - عامًا فى كل ما يتعلق بالفنون العربية . . قسم يختص بأنواع اللغوية . . وقسم لعلوم الآليات . . وقسم للتاريخ وتقويم البلدان . . وقسم للترجمة . . وقسم للمرياضيات » كما يقترح النديم على « مجلس النظر » - (مجلس الوزراء) - اعتماد « مجتمع اللغة العربية » كجمعية لغوية « والزام مدرسى اللغة العربية فى المدارس وغيرها بالنقل عنها . . ثم تتناقل الجرائد المحلية كلماتها وتكررها بالمناسبات لتكون - (وسائل الإعلام) - فى مقام مدرسين يعلمون القراء من قوائدها ، وبهذه الطريقة تتداول الكلمات المقابلة للكلمات الأجنبية ، فتزاحمها العربية مزاحمة تضيق نطاقها . . » .

كما يقترح النديم على الحكومة اعتماد هذا « المجتمع اللغوى » مرجعية فكرية للدولة « تحيل عليه النظر فى المؤلفات الجديدة ليقرر منها الموافق لنشره ويمنع ما يضر بالأخلاق والدين والسياسة » . .

(١) المصدر السابق . العدد التاسع والعشرون ، ص ٦٧٣ .

ويتوجه إلى « المجتمع اللغوى » برجاء وطنى « وهو أن يبعد عن الدخول فى السياسات .. وأن يحفظ الوصلة بينه وبين الأزهر المنير ، بعدم تعرضه لشيء مما هو من خصائص الجامع وسماحة شيخه ، وبهذا يمكنه أن يستعين بأشياخه فى كثير من مواضعه العلمية ، فإن أساسه مبنى على العلوم الأزهرية ، وأعضاؤه يكون معظمهم من الأزهريين الذين يقدرّون على التصرف فى العبارات بالاستنباط أو القياس » (١) .

هكذا دافع النديم عن العربية ، لغة القرآن ، وجامعة الجنس ، وثابت هوية الأمة الحضارية ، وامتد دفاعه عنها عبر مسيرته الفكرية .. منذ أن رفع - فى صحيفته الأولى - شعار « إضاعة اللغة تسليم للذات » .. وحتى المقالات الضافية التى دافع بها عنها فى مجلة (الأستاذ) ..

● ومع « الدين » و « اللغة » - فى جوامع الانتماء الثقافى والحضارى - يأتى جامع « الوطنية » ، الذى يحفظ استقلال الأمة واستقلال الوطن عن الانقياد للغير والتبعية للآخرين ، ذلك « أن جهل الوطنية وحقوقها وواجبات أهلها يسهّل على الجاهل الانقياد للغير وتسليمه الوطن ، غرورا بالظاهر ، وجهلا بالعواقب ، إذ لا يعلم من الوطنية إلا أنه ساكن بهذه الأرض ، ينشفع بالسكنى فيها انتفاع الوحش بالأودية والمفارات ، فلا يعرف تاريخ الحياة الوطنية ولا الأمم المؤسسة لها ولا شرف استقلال الاستيطان ولا مجد وقاية المأوى ، وبهذا يكون بين

(١) المصادر السابق - العدد التاسع والعشرون - ص ٦٧٣ -

يدى الغير بمنزلة أجنبى يستعمله فى مهنته ، وليس له إلا أجر أجير ومنزلة نزيل . . . » .

فالوطنية ليست سَكْنَى فى بقعة جغرافية ، وإنما هى جامعة لشرف استقلال الوطن ، ومجد الأمة ، حتى لا تكون هذه الأمة - إذا فقدت هذا الجامع - فى أرضها بمنزلة الغريب والأجير والنزيل ! . .

● وكذلك الحال - فى عوامل وجوامع الانتماء عند النديم - مع جامع « الجنسية » . . لأن التفریط فى الجنسية ، والتجنس بالجنسيات الأجنبية ، يجعل المنسلخ من جنسيته متخذاً جنسيته عدواً ! . . « فإذا تجنس المرء بغير جنسيته ، بالتقليد واتباع محسنات الغير ومجاراته فى أقواله وأفعاله ، وقعت جنسيته عنده موقع العدو ، وعدم فوائدها التى يأتى بها اجتماع أفراد الجنس » ^(١) .

فالجنسية جامع من جوامع استقلال الذات الوطنية والحضارية ، تعصم الذات من « التقليد للغير واتباع محسناته ، ومجاراته فى أقواله وأفعاله » ! .

● وإذا كنا نتحدث اليوم عن « الاقتصاد المستقل » و « التنمية المستقلة » كشرط من شروط « المشروع الحضارى المتميز » فلقد كان النديم علماً من أعلام تيار الجامعة الإسلامية والرابطة الشرقية ، الذى ارتاد الدعوة إلى هذا الاستقلال الاقتصادى ، فى مواجهة الهيمنة الاقتصادية الغربية منذ بدايات المواجهة مع النهب الاقتصادى الغربى لشروات عالم الإسلام . . والكاتب الأمريكى

(١) المصدر السابق . العدد الأول . ص ١٣ .

«لثرووب ستودارد» - فى كتابه (حاضـر العالم الإسلامى) - يقول
عن تيار الجامعة الإسلامية - الذى بلوره وقاده جمال الدين
الأفغانى : إن «غاية الجامعة الإسلامية الاقتصادية .. هى : ثروة
المسلمين للمسلمين ، وثمرات التجارة والصناعة فى جميع المعمور
الإسلامى هى لهم يتمتعون بها ، وليست لنصارى الغرب يستنزفونها .
وهى نقض اليد من رءوس المال الغربية ، والاستعاضة عنها براءوس
مال إسلامية ، وفوق جميع هذا ، هى تعظيم نواجد أوربة ، تلك النواجد
العاضدة على موارد الثروة الطبيعية فى بلاد المسلمين ، وذلك بعدم
تجديد الامتيازات فى الأرضين والمعادن والغابات وقطر الحديد
والجصارة ، وسائر العقود التى مادامت خارجة من أيدي العالم
الإسلامى فهو يظل عالة على الغرب» (١) !

فنحن أمام برنامج للاستقلال الاقتصادى ، يمثل قسمة من
قسمات استقلال الهوية الحضارية للأمة ، وسمة من سمات
مشروع نهضتها المستقلة .. وفى إطاره نقرأ ما كتبه النديم عن
جناية التقليد للغرب والاستهلاك لمصنوعاته على اقتصاد الأمة
و ثروتها .. « فلما حصل الاختلاط ، وامتدت التجارة ، واتسع
نطاق الزراعة ، وساكن الأجنبى الوطنى ، وتبادل الفريقان الزيارة ،
قبح الغربى اقتصاد الشرقى ، وعده بقاء على الهمجية والتوحش ،
وحسن له التوسع فى المأكـل والمشارب وأتيتها .. وما قصد بذلك إلا
تحويل ما بيده من النقود إلى بلاده ، واتخاذها أجيرا .. فبعد عقد

(١) (حاضر العالم الإسلامى) مجلد ١ ص ٣٢٦ . ترجمة عجاج نويضى - تعليق :

شكيب أرسلان . طبعه بيروت سنة ١٩٧١ م .

(٢) (الأستاذ) العدد الثالث . ص ٥٣ .

المعاهدات التجارية مع دول أوروبا، جرى بمصنوعاتهما إلى مصر،
 فهجم عليها الأهالي، وأقبلوا على البضائع الأجنبية وتركوها صنائعهم
 وصناعاتهم.. ولا زال الأهالي يسميتون الصنائع شيئا فشيئا حتى صارت
 الملابس والفرش والأواني، وكل ما يلزم الإنسان من ضروريات الأثاث
 من صناعة الأجانب، وبهذا ماتت الصناعة موتاً^(١).. مع أنه، يوجد
 بالمحلة الكبرى صناع يصنعون الأقمشة اللطيفة المحتاج إليها لباساً
 وأثاثاً مع إتقان الصنع وجودة القماش وحسن المنظر، لكن الناس
 مفرمون بمصنوع الأجنبي الذي لا يساوي شيئاً في جانب مصنوع
 البلاد^(٢).. لقد آماؤا بهذا الإسراف الاقتصاد الشرقي.. ولما لم تكفهم
 وارداتهم لاستحضار الآلات والمطاعم والمشارب الجديدة اقترضوا
 ورهنوا الأملاك والأطيان!..»^(٣) .

إنها التبعية الاقتصادية التي جلبتها نزعة التقليد والمحاكاة
 للغرب.. وعلاجها - في رأي النديم - هو استقلال الهوية، الذي
 يجعلنا نميز في ما لدى الغرب بين «النافع - الضروري» وبين ما لا
 يوافق «أخلاقنا وعاداتنا».. «فلو أخذنا من محسنات الغرب ما
 لا بد منه، واقتصرنّا على ما يوافق أخلاقنا وعاداتنا لحفظنا لأنفسنا حق
 الانتفاع بثمره الاقتصاد الشرقي..»^(٤) .

هكذا تكلم النديم عند الاستقلال الاقتصادي، سبيلاً للحفاظ
 على الثروة، وطريقاً للتنمية مكونات الاستقلال الحضاري أمام

(١) المصدر السابق . العدد الثامن . ص ١٨٦، ١٨٧ .

(٢) المصدر السابق . العدد السابع والثلاثون . ص ٨٩٤ .

(٣) المصدر السابق . العدد الثالث . ص ٥٥ .

(٤) المصدر السابق . العدد الثالث . ص ٥٦ .

مخاطرو إغراءات التقليد والمحاكاة ... وكأنه - رحمه الله - يتكلم
عن مشكلاتنا ، ساعة كتابة هذه السطور ! ..

● والنديم ، الذي كانت حياته « صيحة في سبيل الحرية » -
للفرد .. والوطن .. والأمة - والذي صار قوياً الاستبداد ..
وهرب بحريته من جبل المشقة .. وعانى من النفي والتغريب عن
وطنه - لم يخلط - هذا العاشق للحرية - بين مفهومها الإسلامي ،
الذي ينتمى إليه ، ويزكيه ، ويدعو لإشاعته ، وإقامة نظمته
ومؤسساته ، وبين مفهومها الغربي ، القائم على « الإباحة » وعدم
التعرض لأحد في أموره الخاصة ، الذي رفضه ، معتبراً إياه
« بهيمية » إن ساعدت في أوروبا ، فهي غير سائغة في عالم
الإسلام ، الذي ضبظت شريعته حقوق الناس بحقوق الله ،
وحريات الناس بالأخلاق والعبادات والقواعد الدينية ..

وعن هذا الملمح من ملامح منظومة الانتماء الثقافي للنديم ،
كتب الرجل فقال : « .. ولئن قيل : إن الحرية تقضى بعدم تعرض أحد
لأحد في أموره الخاصة ، قلنا : إن الحرية عبارة عن المطالبة بالحقوق
وأنوقوف عند الحدود . وهذا الذي نسمع به ونراه رجوع إلى البهيمية
وخروج عن حد الإنسانية ، ولئن كان ذلك سائغاً في أوروبا فإن لكل أمة
عادات وروابط دينية أو بيتية ، وهذه الإباحة لا تناسب أخلاق المسلمين
ولا قواعدهم الدينية ولا عاداتهم . والقانون الحق هو الحافظ لحقوق
الأمة من غير أن يجنى أو يفرض بالجناية عليها بما يبيحه من الأحوال
المحظورة عندها .. » (١)

(١) المصدر السابق . العدد التاسع عشر . ص ٤٣٩ .

وعندما يعرض النديم لتطبيقات المفهوم الغربى للحرية - مفهوم الإباحة وعدم التعرض لأحد فى أموره الخاصة - على «حرية المرأة» ، وما أثمرته تطبيقات هذا المفهوم من إباحة الزنى بالتراضى والاختيار ، دون مراعاة للضوابط الشرعية .. يرى النديم فى ذلك «حرية مدنية ينفر منها البهيم .. وهى لاتوافق عوائد أهل الشرق ولا أديانهم ، فقد اتفق المسلمون والنصارى واليهود والمجوس على الغيرة على النساء وصيانتهم ، وأجمعوا على تحريم الزنا وقبحه ، بإطلاق الحرية فى هذا الباب مذمومة .. وما سمعنا بمثل هذا فى الجاهلية الأولى ..»^(١) !

ولا يحسبن أحد أن موقف النديم هذا كان نابعا من عدااء للمرأة .. فنساء مصر - قبل سنوات طويلة من حديث قاسم أمين (١٢٨٠ - ١٣٢٦هـ ١٨٦٣ - ١٩٠٨م) عن تحريرهن - عندما تطلعن إلى إصدار مجلة نسائية ، قد وقع اختيارهن على عبد الله النديم .. وعن هذا المشروع - لإصدار جريدة (المربى) الأسبوعية - للمرأة والطفولة - كتب النديم يقول : « تقدمت لنا كتابة من ثلاث وعشرين سيدة يطلبن إنشاء جريدة تختص بهن .. وهذا الذى حملنى على إجابة طلبهن فى نشر جريدة أسبوعية تسمى (المربى) .. وسنشرك معنا بعض الأفاضل الأطباء لتحرير ما يختص بالأمراض والحوامل .. وإنا نشكر السيدات اللاتى اقترحن هذا الاقتراح البديع ، كما نشئ عليهن فى اختيار هذا الضعيف - (النديم) - لهذه الخدمة ، وقد علمن ذلك بقولهن : «إنه لا يقدر على تحرير جريدة بلساننا ولسان الأطفال إلا مثلك ؛ فلذلك رجوناك هذا الرجاء» ..

(١) المصدر السابق . العدد الثامن والعشرون . ص ٩١٢ .

ثم يستطرد النديم ، فيدعو النساء إلى الإسهام في تحرير هذه
الجلّة بالأفكار والمقالات . . فيقول : « واني كذلك ، أرجوهم أن
يبعثن لى أفكارهن فى المواضيع التى تطرأ عليهن . . نشر الفضائل
سيدات العصر ، كما نشر المتقدمون فضائل من عاصروهن . ولهن أن
لا نصرح باسم واحدة منهن إلا من شاءت ذلك . . والله تعالى
يوفقنا لما فيه رضاه ونفع الأمة ذكرانا وإناثا » (١) .

وفى هذا الذى كتبه النديم بيان على أن النموذج الذى كان فى
فكره ، لهذه النهضة النسائية ، لم يكن النموذج الغربى - الذى
رأى فى حريته وتحريره « حرية مدنية ينفر منها البهيم » ! - وإنما
كان نموذج الحرية والتحرير للمرأة الشرقية هو النموذج الشرقى
الإسلامى فى عصور ازدهار حضارتنا الإسلامية . . فلقد كان
النديم يريد - وفق عبارته - « نشر الفضائل سيدات العصر كما نشر
المتقدمون فضائل من عاصروهن . . » .

ونقد النديم للمفاهيم والمضامين والتطبيقات الغربية فى « الحرية
الشخصية » وفى « حرية المرأة » لم يمنعه من طلب الاستفادة من
الجوانب الإيجابية لمفاهيم الغرب وتطبيقاته للحرية فى ميادين
أخرى . . فلقد دعا إلى النظر فى تحارب الغرب فى « التعددية
الحزبية » ، مع ضرورة قصر عضوية هذه الأحزاب على « الوطنيين » ،
وتطهيرها من دعاة التقليد والمحاكاة للأفكار الغربية « الطائرين خلف
المحسّنات الأوروبية » . . فهذه الأحزاب لا يمكن تكوينها إلا من
الوطنيين ، الذين يخافون أن تطأ خيل الغرباء قبور أجدادهم
الحافظة لعظام المجد الوطنى والشرف الملكى . . فعلينا أن نبحث فى

(١) المصدر السابق . العدد الرابع والثلاثون . ص ٨٠٤ ، ٨٠٥ .

طرق أحزاب أوروبا وروابطهم ، وكيفية سيرهم ، وموجب استمرارهم على ما هم فيه . . . ولتكن لكل حزب جرائد تنشر أعماله وتؤيد أقواله . . . بحيث تلزم مشربا لا تتحول عنه ، ولا تتلون بتلون المطامع . . . ولا يلزم من اختصاصها أن تكون مضادة لغيرها من الجرائد في كل ما يكتب فيها ، فإن الجرائد مدارس الأفكار . . . تحافظ على مبادئ حزبها ، وتجاري الجرائد في المقالات العامة والأفكار النافعة . . . وإلا إذا تركت الأحزاب والجرائد ، وأخذت كل ما يقال بالقبول ، من غير بحث في مصدره وما تحتته من اندساس ، تحول مجرى سيلها الوطني إلى الأودية الأجنبية ، ووقعت في أشراك أوروبا وهي لا تشعر . ولتكن مظهرة من ذوى الأفكار الفاسدة ، محفوظة من انطائرين خلف المحسنات الأوروبية . (١) .

فهو في الحريات الفردية والشخصية ، يريد مفهومًا متميزًا عن المفهوم الغربي ، مضبوطًا بحدود الله وحقوقه وأخلاقيات الأمة وعواندها . . . وهو في تكوين الأحزاب ، وفي صحافتها ، يريد ضبط أفاقها بالمصالح الوطنية ، وبمميزات الانتماء الثقافي والخصوصية الحضارية ، وذلك حتى لا توقعنا هذه الحريات ، في شراك أوروبا . . . والأفكار الفاسدة للطائرين خلف المحسنات الأوروبية . . .

ومن موقع العاشق للحرية ، انتقد النديم نظم التغلب والاستبداد الشرقية ، تلك التي حرمت الأمة من ثمرات نظام الشورى ، بل واضطهدت العقلاء والنبهاء خوفا على استبدادها ، حتى جعلتهم عبرة أخافت بها الجمهور ! . . . فلقد أخطأ الشرقيون طريق الشورى بسبب الجهالة التي عصت الأمم الشرقية ، فلم

(١) المصدر السابق ، العدد العشرون . ص ٤٦٣ - ٤٦٥ .

يكن عند ملوكهم ثقة بأعيانهم ووجهانهم، ولا يحبون كثرة العقلاء خوفاً من التغلب الذي يحلم به كل ملك شرقي، وهو وهم لا حقيقة له، ولذا نراهم ينبغ في ممالكهم أناس وضعوهم تحت سوط التضييق حتى يفيض الغير طريق العقلاء والنبيهاء فراراً من الوقوع فيما وقعوا فيه من البلاء والعناء... (١)

وفي النظم التي سمحت بألوان من الشورى، ينتقد النديم «التعويل على استشارة أرباب الأموال وأهل الوجاهة»، عن غير تخيير العقلاء منهم ولا تمييز الأغنياء من الأذكياء... «في الوقت الذي أنفت فيه هذه النظم» من استشارة الفقراء ومفاوضة الضعفاء وإن كانوا قد اعتلثوا علماً وكسوا نباهة... (٢)

ويرد على الذين يزعمون ملاءمة الشورى للغرب دون الشرق، داعياً إلى الاقتداء بالغرب في مسيرته الشورية، التي صحح فيها أخطاء التجربة الشورية بالمزيد من الإصرار على السير على دربها... «فلئن قيل: إن الشورى لا تنجح في الشرق» كما يزعم محبو الأثرة والانفراد بالسلط - قلنا: إن اتحاد الشرقي مع الغربي في الخلق يرد هذه الدعوى الباطلة. وإنما ثابر الغربيون على العمل بالشورى، وأخذوا يصححون الأغاليط ويراجعون الخطأ... حتى تربت الملكات، وما أوصلهم لهذه الغاية إلا اعتمادهم على الفضلاء الأذكياء منهم، حتى اضطرب الأغنياء وأوجهاء لدراسة العلوم والفنون السياسية التي بها ترشحوا للدخول في أندية الشورى... (٣)

(١) المصدر السابق، العدد الخامس عشر، ص ٣٥١.

(٢) المصدر السابق، العدد الثالث والثلاثون، ص ٧٦٤، ٧٦٥.

● كذلك دعا النديم إلى إحياء عاداتنا في التجمعات .. وفي الأعياد .. وانتقد تقليد الغربيين .. فلقد تميزت مناسبات اجتماعاتنا ، تاريخيا ، « بالخطب الحاوية لدراسة الأحوال وجمع الآراء وتنبيه الأمة على ما يجب لها من الضرورات .. أما جعل الزيارة - في الأعياد - قاصرة على كل عام وأنتم بخير .. أو الاقتصار على إرسال ورق الزيارة - (بطاقات التهئة) - بالبوسطة ، تقليدا للأوروبيين ، فهو جهالة ، وإعدام لثمرة العيد بالمرة » (١) .

● ولم يكن النديم مترمما في الموقف من الفنون - ومنها فن الغناء - السماع - لكنه كان داعية لمراعاة الخصوصية الشرقية التي ربطت الفنون « بالفضيلة والمزايا الجميلة » فدعا إلى إقامة أندية وطنية للغناء المصري ، تكون « مجالس للسماع » خالية من الغوغاء وأم الخبائث - (الخمر) - فإن التغنى بالشعر اللطيف ، الحاوي للمعاني الرقيقة ، المنبه لأفكار العامة للسعي خلف الفضيلة والمزايا الجميلة ، مما يحرك الطباع للعمل ، ويبعث في النفوس رغبة فيما تضمنه الشعر من مقاصد الشعراء الجميلة . وحبذا لو كان لنا مغنى مصري ، خال من الخمر والمومسات والغوغاء ، لا يدخله إلا أناس مشتركون فيه شهريا أو سنويا يتذكروا مخصصة ، برئاسة أشهر المغنين ، كالمجيد المتفنن أمير الأغاني عبده أفندي الحمولى وأصحابه الشيخ يوسف خفاجه ومحمد أفندي عثمان وأحمد أفندي الليثي وأمثالهم ، ويشترط أن يكون لهذا المغنى مجلس ينظر فيما يغنى به من الأشعار والأدوار ، بحيث يحجر على الأدوار السخيفة والضروب الخارجة عن حد الآداب ، فلا يرخص للمغنين

(١) المصدر السابق ، العدد الرابع والثلاثون - ص ٨٠٢ ، ٨٠٣ .

إلا بما فى سماعه تنشيط وفى كلماته معان تعجب العقلاء ويرضاها الفضلاء . كما يشترط أن يكون المغنى المصرى تحت إدارة مصريين ، لا يشاركهم فى إدارته أجنبى ، ليكون وصفه بالمصرى جاريا على حقيقته» (١) .

هكذا نظر النديم إلى الغناء ، باعتباره فنا وطنيا جميلا ، يسهم فى تميز هوية الأمة وخصوصية حضارتها ، بل ودعا إلى جعله مؤسسة وطنية تنهض بدورها فى مواجهة التحديات التى تواجه الانتماء والتحرر والنهوض ..

● وإن الإعجاب ليزداد بالنديم عندما نرى اتساع آفاقه التى التمس فيها مقومات الانتماء الشقافى ومنطلقات النهوض الحضارى .. حتى لقد نبه على دور « الآثار .. والعاديات » ، بل وحتى عظام الأسلاف ومقابرهم ، فى الانتماء الشقافى المتميز لتاريخنا الحضارى المتميز .. وحذر من محاولات الغرب أن ينشئ ويسرق : مع تاريخنا ، عظام العظماء من الأسلاف والأجداد .. فتحدث النديم إلى أبناء أمته قائلا ومحدرا : « عما قريب تُنبش قبور أبائكم وأضرحة عبادكم وسادتكم ، لتؤخذ تلك العظام النخرة إلى أوروبا ، حتى لا يكون هناك أثر لذى مجد من الشرقيين ، فإن خفتكم من ذلك فاتخذوا أعظم الوسائل لبقاء موتاكم متوسدى تراب قبورهم ، فإننا نرى الأوروبيين ينقلون عظام موتاهم من بلاد حاربوا فيها ليحفظوها فى أوطانهم حتى يزورها الآتى ويقرأ تاريخها العجيب» (٢) .

(١) المصدر السابق . العدد الثالث عشر . ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

(٢) المصدر السابق . العدد الثانى والعشرون . ص ٥٣٠ .

فالأثار والعاديات وأضرحة الأولياء ومقابر العظماء ، شواهد على الجمد التاريخي ، وسلاح من أسلحة الانتماء الثقافي في مواجهة التحديات الغربية التي بلغت في الشراسة حد نبش القبور ، وسرقة العظام النخرة ، تجريدا لأمتنا من أمجادها . .

● كذلك وقف النديم - في كتاباته عن تراث الأمة ، الحامل لخصوصية انتمائها الثقافي - أمام مؤسستين من مؤسساتها العتيقة العريقة الموروثة . . الأزهر . . والطرق الصوفية . . ولقد تميزت وقفاته بنظرة تجديدية ، تحافظ على العراقلة وخصوصية الانتماء ، مع التطلع للمستقبل الذي يستدعى تطورا من داخل النسق الفكري ، يحافظ على ثوابت الهوية ويستجيب لدواعي المستجدات . .

فهو يعلن أن « منكر فضل الأزهر كمنكر نور الشمس في اليوم الصائف »^(١) . . وعلماء الأزهر « هم أئمة الناس في السير إلى المدنية . . وهم والملوك في رتبة الأبوة بالنسبة إلى الأمم ، بل هم الآباء الذين يؤهلون الملوك للقيام بوظائفهم ، فالرتبة العلمية هي الرتبة العليا في العالم الإنساني »^(٢) .

وهو يلح على الحفاظ على استقلال الأزهر عن الحكومة والدولة ، وخاصة بعد أن غدت الحكومة والدولة خاضعة لسلطان الاحتلال ، ويدعو « ديوان الأوقاف » إلى عدم المساس باستقلال الأزهر ، فيقول : « وأملنا من ديوان الأوقاف معرفة استقلال الجامع الأزهر واحترام شيخه وعدم إداخله في الملحقات التي تصيره فرعاً وهو أصل لا يصح أن يلحق بغيره استتباعاً ، فإن تقلبات الأحوال

(١) المصدر السابق . العدد السادس والعشرون ، ص ٦١٤ .

(٢) المصدر السابق . العدد السادس والعشرون ، ص ٦١٣ .

حذرنا من التهاون في مثل هذا الاستتباع - ولا ينجى الأزهر من تلاعب الأفكار به إلا استقلاله تحت إدارة شيخ شيوخه . . وإن ثقتنا بالقائمين بالأعمال الآن لا تمنع من تخوفنا من المستقبل إذا استمر الاحتلال لأجل طويل ، معاذ الله ^(١) !

وهذا الأزهر المستقل - الذي هو أصل لا يصح أن يلحق بغيره - كان النديم واحدا من دعاة إصلاح مناهجه ، وتحديد علومه ، وتأهيل علمائه بالمعارف والعلوم التي تجعلهم مالكين لمعارف العصر مع معارف التراث . . بل وكان النديم داعيا إلى تربية علماء الأزهر تربية سياسية تجعل لهم دورا في شئون الدولة إلى جانب أدوارهم التقليدية في شئون الدين . . فأنت « ترى كل مشغل بالأزهر منصرفا عن الدنيا وما فيها ، فلا يقرأ الجرائد العلمية ولا السياسية ، ولا يعرف شيئا من أحوال الممالك ، ولا يقرأ تقويم البلدان (الجغرافيا) ، ولا علم له بشيء من الجارى بين الملوك والطوائف ، ولا وقوف له على حوادث الحروب واختلاف الأمم . ولا إلمام عنده بصناعة أو زراعة أو أصول تجارة ، ولا يبحث في مخترع يسمع به ومقترح يرد عليه ، كأنه في جب لا ساكن فيه إلا من مائله في هذا التجرد الشنيع ، مع إنه يعلم أنه يطلب العلم ليكون مؤهلا للإفتاء والقضاء ، وهاتان الوظيفتان أرقى وظائف السياسة القضائية المتصلة بكثير من الفروع الإدارية . . لقد أبعدت جموع العلماء عن مجالس الأمراء لعدم اقتدارهم على مشاركتهم في تبادل الأفكار ، إذ لا يعلمون من لوازم الدولة شيئا . . » ^(٢) !

(١) المصدر السابق . العدد الثامن والثلاثون . ص ٩١٩ ، ٩٢٠ .

(٢) المصدر السابق . العدد السادس والعشرون . ص ٦١١ ، ٦١٢ .

ولهذا الموقف التجديدي ، الذي اتخذه النديم ، من مؤسسات العلوم التراثية - والأزهر في طليعتها - كان تقدير النديم لمنهاج «دار العلوم» ، الجامع بين الموروث وبين الجديد « فدار العلوم خرجت للمعارف أفاضل حازوا فضيلتي الأزهر المنير والمعارف البهية » (١) جميعاً . .



وفي تحديد النديم لدوائر انتمائه الفرعية ، بإطار جامع الإسلام ، قال : إنه عبد الله النديم ، الإدريسي ، الحسني ، الأشعري ، الشافعي ، الخلوتي ، الإسكندري . . . » (٢) . . فذكر الطريقة الصوفية التي ينتمي إليها - « الخلوتية » - واحدة من دوائره في الانتماء . .

لكن ثقافة النديم الإسلامية كانت ثقافة العالم الذي يرى التصوف الحق هو طريق الأئمة الذين التزموا ، في أخذ الدين والفكر الإسلامي ، عن مصادرهما الحقة : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس . . والذين رأوا التصوف سبيلاً لتهديب النفس والإرتقاء بها على سلم الرياضات الروحية ، ملتزمين في كل مراحل الطريق بأحكام الدين وفق قواعد أهل السنة في استتباط الأحكام . . فطريق التصوف الحق ، عند النديم ، هو « الطريق المسلوك للقوم ، المبني على الإخلاص في العمل وحب الخلوة والبعد عن الناس والصمت عن النفوس وملازمة الذكر ومداومة السهر فيه والتهجد والزهد فيما في أيدي الناس والتمسك بالسنة والإرشاد إلى الطريق المستقيم » (٣) .

(١) المصدر السابق - العدد الثاني - ص ٣٦

(٢) المصدر السابق - العدد الحادي والأربعون - ص ٩٩٩ .

(٣) المصدر السابق : العدد الرابع والثلاثون - ص ٧٨٧ .

ومن هذا الموقع للتصوف الملتزم بالشريعة كان نقد النديم للبدع الفكرية - بل والكفرية - وللممارسات الخرافية التي التصقت بكثير من طرق الصوفية ، والتي حسبت على التصوف زورا وبهتانا . فبعد أن حدد طريق التصوف الحق ، استطرد فقارن بينه وبين ركام الانحرافات والخرافات السائدة لدى كثير من المنتسبين للتصوف ، فقال : « . . وأين هذه الأصول الشريفة مما نراه الآن من الخروج عن الحدود ، واستبدال السنة بالبدعة ، وترك الشرع بهوى النفس والطامة الكبرى دعوى بعض الأشياخ وانتحاله ما يضر بالعقيدة ، وإضلاله العامة بما ينقله إليهم عن بعض الصوفية ، مدعيا وصوله إليه من طريق الفتح أو الإلهام ، فقد كثرت النحل والبدع ، وسمعنا من أقوالهم ما ليس من ديننا ولا يقول به أهل دين آخر ، اللهم إلا عند البوذية من المجوس فإن لهم أقوالا تشبه أقوال القائلين بوحدة الوجود ، وهم لا يدرون معنى القول بالوحدة . . . وله العلامة الشيخ جمال الدين . (الأفغانى) . حيث أخبر السيد البكرى . (شيخ مشايخ الطرق الصوفية) أن القول بوحدة الوجود أصله دين قدماء اليونان ، ودخل في العرب عند ترجمتهم كتبهم ، فهو دين متداخل في دين ، من غير شعور الأخذين به . (١) »

وغير هذه « البدعة - الفكرية - الكفرية » - القول بوحدة الوجود - والتي جعلت هؤلاء المبتدعين يتغنون بعبارات من مثل : « وما الكذب والخنزير إلا إلهنا » ! . . و « أنا من أهوى ومن أهوى أنا » (٢) ! هناك الممارسات البدعية في الموالد ، حتى لقد قال الإفريج : لنا كرنفال في السنة ، ولكم في كل مولد كرنفال » (٣) !

(١) المصدر السابق . العدد الرابع والثلاثون . ص ٧٨٧ . والعدد الخامس والثلاثون : ص ٨٤١

(٢) المصدر السابق . العدد الرابع والثلاثون . ص ٧٨٨ .

(٣) المصدر السابق . العدد الرابع والثلاثون . ص ٧٨٩

يهاجم النديم كل ذلك ، قائلا : « فهلا اتخذ الناس طريقة للموالد واجتالس غير هذه الطريقة الشنيعة ، وهلا رجع هؤلاء الجاهلة عن بدعهم والتزموا طرق أشياخهم الذين يدعون أنهم على آثارهم؟! وما هم إلا في أيدي الشياطين يلعبون بهم كيف يشاءون . . . إنهم إن تصادوا في بهتانهم وافترانهم على الله ورسوله ، اضطررنا لكتابة رسالة في عقيدتهم وفسادها ، وأوردنا أقوال أهل السنة فيها ، وتكفيرهم القائلين بوحدة الوجود... » (١) .

لقد كان انتماء النديم ، في الثقافة الدينية : إلى الأشعرية في الأصول - وهي تيار الوسطية الإسلامية ، الذي استقطب جمهور الأمة في تصورات الاعتقادات . .

وإلى المذهب الشافعي - في فقه الفروع - وهو الذي استقطب جماهير واسعة في مصر ، بعد أن استوطنها الشافعي ، محمد بن إدريس (١٥٠ - ٢٠٤ هـ ٧٦٧ - ٨٢٠ م) وأبدع فيها مذهب الجليل . . وإلى التصوف السني - في طريق تهذيب النفس بالمجاهدات الروحية . .

وكان في جميع دوائر هذا الانتماء الثقافي عقلا ناقدًا ، وفكرًا مجددًا ، كواحد من علماء وأعلام مدرسة التجديد الديني والإحياء الإسلامي - مدرسة الجامعة الإسلامية . . والرابطة الشرقية - التي تبلورت من حول موقف الشرق وفيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغاني . .

(١) المصدر السابق - العدد الرابع والثلاثون - ص ٧٨٦ ، ٧٨٨ .

الآخر.. السياسى.. والحضارى.. والثقافى: ♦

وفى مقابل هذا «العالم الثقافى» الذى انتمى النديم إلى دوائره ومكوناته ومنطلقاته ومثله ومعاييره.. عالم الإسلام والجامعة الشرقية، والذى اتخذ فيه موقعه، كواحد من تيار الإحياء والتجديد.. كان هناك «الآخر» السياسى والحضارى والثقافى الذى كانت حياة النديم ملحمة من ملاحم الصراع معه، والنقد له، والكشف لأحاييله التى نصبها للشرق والشرقيين.. كان هناك الغرب الاستعمارى.. وتبشيره الدينى.. وغزوه القيمى والثقافى.. وكان هناك «الأجراء» و«العملاء» - من أبناء جلدتنا - الذين اتخذوا موقع «التبعية» و«الأدوات» للاستعمار الغربى فى بلادنا!..

● فالغرب، كمشروع استعمارى، قد وظفت دوله الأوروبية النظام الدولى والمعاهدات الدولية لحل تناقضاتها وتوحيد كلمتها فى مواجهة الشرق وفى سبيل استعمار «المعاهدات الدولية».. اجتمعت كلمة ملوك أوروبا على حفظ الوحدة الأوروبية من مس الشرق لها مهما ثقلت المسائل الدولية بين أيديهم، وعلى توجيه الهمم إلى الشرق فتحا واستعمارا..»^(١).

● والاستعمار الغربى يحاول أن يستمر مقاصده - فى النهب الاقتصادى.. والاستبداد السياسى.. والاستعلاء العنصرى.. - والمسخ الثقافى والقيمى.. والتعصب الدينى - بشعارات كاذبة عن «الإصلاح وبت المدنية».. ذلك «أن دولة من دول أوروبا لم تدخل بلدا شرقيا باسم الاستيلاء، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبت المدنية.. وقطع عروق الجهالة والخشونة من العالم وهى علل باطلة ودعاوى

(١) المصدر السابق، العدد الخامس عشر، ص ٣٤٦.

كاذبة يبحث على افترائها حب الاستبداد من أم تدعى الحرية وهم لم يشتموا لها رائحة إلى الآن^(١) . . . فهم يربون إنسانهم على عداوة مثله ، ويسقونه كأس البغضاء يوم فطامه من ثدى أمه ، فيخرج منكرا على مثيله صورته ، مدعيا أن غيره وحشى الطبع همجى السير ، وأن الإنسانية محصورة فى حشو جلده . . . منكرين وحدة الإنسانية ، كرابطة كبرى بين جميع سكان الدنيا . . . »^(٢) ! .

ولقد فضحتهم ممارساتهم الاستعمارية فى بلادنا . . . فى النهب الاقتصادى ، والاستبداد السياسى « أصبح الأجنبى الخفير فى بلادنا أعز من اللورد والسير والبارون فى بلاده »^(٣) . . . وبالقوانين الأجنبية والمحاكم الأجنبية ، التى لا يدرى الفلاح شيئا من أصولها^(٤) « جردوا هذا الفلاح من ممتلكاته . . .

● والغرب - كدوائر حكم . . . وجماهير غفيرة - قد استعان على تبرير اجتياحه لديارنا واحتقاره لثقافتنا ، بتشويه صورة ديننا الإسلامى فى وعى أبنائه . . . فهم يزعمون « أن جماعة من العرب دعتهم الثقافة إلى اتخاذ قطع الطرق وسيلة لشروتهم ، فاتخذوا لهم رئيسا اسمه محمد بن عبد الله ، وساروا تحت رأيه ، وأخذوا فى مهاجمة الأم ونهب البلاد ، فلما علت كلمتهم وسرى صوتهم فى الأقطار ، ادعى قائدهم أنه صاحب شريعة ، وأخذ يضع لهم تعاليم دينية جمعهم عليها . . . »^(٥) !

(١) المصدر السابق . العدد الثامن والعشرون . ص ٥١٤ . والعدد الرابع والثلاثون . ص ٧٩٤ .

(٢) المصدر السابق . العدد الثامن عشر . ص ٤٢١ .

(٣) المصدر السابق . العدد التاسع والثلاثون . ص ٩٤٦ .

(٤) المصدر السابق . العدد الثامن عشر . ص ٤١٠ .

(٥) المصدر السابق . العدد الثامن عشر . ص ٤٢٢ .

● والغزوة الغربية لبلادنا الشرقية ، لا تقف عند احتلال الأرض ونهب الثروة ، وإنما هي - مع ذلك - غزو للتقسيم والأخلاق . تستهدف حل عروة الدين الإسلامي ، التي هي أوثق العرى في جامعتنا الشرقية ، وإحلال المدنية البهيمية محل المدنية الشرقية الملتزمة بمثل الدين ومعاييره . . .

يرى النديم ذلك ، فيكتب تحت عنوان (العُدوى الأوروبية للبلاد الشرقية) فيقول : « إن من قابل بين بلاد الشرق قبل استيطان الأوروبيين بها وقبل استيلاء بعض دول أوروبا على بعضها وبين حالتها الراحنة ، من حيث الآداب العامة ، رأى فرقا كبيرا وتباينا عظيما . فإن الواقف على عادات الشرقيين وقواعد أديانهم يعلم أن المسلمين والمسيحيين والإسرائيليين يرون تحريم الزنا من الجهة الشرعية وقبحه من الجهة العقلية ، ويرون صيانة الأعراض من الواجبات . . وكانت الحكومات الشرقية محافظة على الآداب الشرعية والحقوق الشخصية . . فكانت الأعراض مصونة والرجال آمنون على بيوتهم ، غابوا أو حضروا . . وكان الرجال المسلمون أبعد خلق الله عن الخمر ، والإسرائيليون لا يشربونها إلا في الأعياد ، والمسيحيون لا يشربون إلا القليل في أوقات مخصوصة ، أما نساء الأقسام الثلاثة ، فإنها ما كانت تذوقها ، ولا كان الرجال يدخلونها عليهن ، لعلمهم أن ما بعد سكر المرأة إلا الافتصاح والميل إلى البغاء . فلما تدخل الأوروبيون في البلاد الشرقية ، بالتجارة والتغلب ، أفسدوا أخلاق الرجال والنساء بما أدخلوه فيهم من مسمى مدنيتهم التي هي رجوع إلى البهيمية . . وكنا نتألم نحن معاشر المصريين من هذا العيب القبيح ، ظنا منا أن ما أدخله الإفرنج من المصائب لم يصب به غيرنا ، ولكننا علمنا

من أحوال تونس ما هو أقيح وأشنع ، فلعننا أن ذلك أمر مقصود لكل دولة أوروبية حلت بلادا شرقية ، لحل عروة الدين التي هي أوثق العرى في الجامعة العصبية والالتنام الوطني .. لقد اسود وجه المجد بما يصفه أحلام الشرقيين ويلحقهم بالقروذ في التقليد الأعصى^(١) ! .

● ومع تغيير القيم والعادات ، وحل عروة الدين ، التي هي أوثق عرى الجامعة العصبية والالتنام الوطني - استهدفت هذه الغزوة الغربية إحلال القانون الوضعي محل الشريعة الإسلامية وفقه معاملاتها ، وإحلال النزعة الوضعية والفلسفة المادية محل التصورات الإيمانية في تفسير الكون والحياة والتاريخ .. وإحلال اللغة الأجنبية محل العربية .. « إن دولة من دول أوروبا لم تدخل بلدا شرقيا باسم الاستيلاء ، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية ، وتنادي أول دخولها بأنها لا تتعرض للدين ولا للعوائد ، ثم تأخذ في تغيير الاثنين شيئا فشيئا .. كما تفعل فرنسا في الجزائر وتونس ، حيث سنت لهم قانونا فيه بعض مواد تخالف الشرع الإسلامي ، بل تنسخ مقابلهما من أحكامه ، ونشرته في البلاد ، واتخذت لتنفيذه قضاة ترضاهم ، ولما لم تجد معارضا أخذت تحوّل كثيرا من موادها إلى مواد ينكرها الإسلام ، توسيعا لنطاق النسخ الديني . ولم نلبث أن جاريناها وأخذنا بقانون يشبهه .. ثم حجرت على المدارس تعليم بعض علوم شرعية ، وألزمهم بتعلم لغتها . والأخذ بالطبقيات والرياضيات حتى لا يشم الأبناء رائحة الدين ، لئلا يعلموا أنهم يغيرونهم ديناً فيثورون عليهم .. ولإعدام اللغات الوطنية التي يموت بموتها الدين وحمية الجنس والغيرة الوطنية .. »^(٢) ! .

(١) المصدر السابق . العدد الرابع والثلاثون . ص ٧٧٩ - ٧٨٢ ، ٧٨٤ .

(٢) المصدر السابق . العدد الثاني والعشرون . ص ٥١٤ ، ٥١٥ .

ونقد أفاضل النديم في فضح مقاصد الغرب الاستعماري ،
 كتنقيض حضاري وثقافي وقيمي . . بل ولم تمنعه القيود التي
 فرضتها سلطات الاحتلال على اشتغاله بالسياسة - كتدبير يومي
 للدولة - من الدعوة إلى إجلاء جيوش الاحتلال ، وإن يكن قد
 حجب الطريق السلمي لتحقيق ذلك « فبالرفق يستخرج الإنسان
 الحية من وكرها » (١) .

● ومع ذلك ، فإن النديم لم يغفل الوجه الآخر للحضارة
 الغربية . . « فكم للغرب من آثار كانت زينة للشرق ، وزيادة في قوته
 العاملة والمديرة . . » (٢) . ومن علماء الغرب من أنصف الإسلام
 « وأثبت انفرادهم من بين الأديان بتسليم أساليب الحرية وأفانين
 الفضائل . . » (٣) .

بل وكان النديم داعية إلى معرفة ما لدى الآخر - بدلا من الرفض لأنه
 أت من الآخر - ثم عرض هذا الواحد على أصولنا ومعايير اعتقادنا
 ومنطلقات انتمائنا الثقافي وخصوصيتنا الحضارية ، وبعد هذه الرؤية
 المقارنة والموقف النقدي يكون الرفض أو القبول . . ذلك « أن الذي
 نراه مغايرا للدين ، لم تظهر لنا مغاييرته إلا بعدم الاشتغال به ،
 ووصوله إلينا على يد من يخالفنا دينا ، فلو اشتغلنا به لأمكننا أن
 نرده إلى أصولنا بالتأويل أو بالقياس ، أو ندافع عن أصولنا ببيان
 الفاسد فيه . وأما رده دفعة ، بلا نظر ولا استدلال ، فإنه تعصب

(١) المصدر السابق ، العدد الثاني والعشرون . ص ٥٢٨ .

(٢) المصدر السابق . العدد الثاني . ص ١٤١ .

(٣) المصدر السابق . العدد الثامن عشر . ص ٤٢٣ - والإشارة للعالم الفرنسي

« سيدوي » في كتابه « التمدن الإسلامي » . .

للجهل ، لا للعلم والدين ، فإننا لا يمكننا أن نقيم حجة على فساد
ونحن لم نشتغل به» (١) . .

ذلك هو منهاج النديم في رؤية الآخر الحضارى والثقافى : العلم
بما لديه ، وجعل أصول اعتقادنا ومعايير انتمائنا الثقافى هى
القاضى فيما نأخذ وفيما ندع من بضاعة الآخرين . . وهو المنهـاج
القرآنى . . منهـاج ﴿ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (٢) ﴿ قُلْ
هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾ (٣) ؟ . . انـتـونـي بـكـتاب مـن قـبل
هـذا أـو أثـارة مـن عـلم إـن كـنـتـم صـادقـين ﴾ (٤) . . بـينـما كـان مـنـهـاج
الشرك الجاهلى هو التعميمية والمصادرة ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا
تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٥) . .

(١) المصدر السابق - العدد السادس والعشرون - ص ٦٠٨ ، ٦٠٩ .

(٢) البقرة : ١١١ .

(٣) الأنعام : ١٤٨ .

(٤) الأحقاف : ٤ .

(٥) فصلت : ٢٦ .

الأجزاء .. المبشرون بالنموذج الغربي : ◆

ولأن أوروبا قد زحفت على بلادنا - فى الغزوة الاستعمارية الحديثة - كما يقول النديم .. وقد أحكمت التأليف بين القوتين : الدينية ، والملكية ، فجعلت الأولى سفير و داد والثانية فارس جلاذ .. ومقبحة لما عليه الشرقيون من دين وسيرة ومعيشة وانتماء وصناعة وتجارة وزراعة ، منادية بينهم بأن الغرب محل التشريع ومنبع العلم ومرجع الفضائل ، ولا حياة للأمم إلا بماتأخذة عنه ، ولا مجد لمن لم ينتم إليه ، ولا فضل لمن لم يتعلم فيه ، ولا شرف لمن لم يتكلم بلسانه ويتعبد بعبادته ويتقيد بعاداته .. (١) !

لأن هذه هى آفاق مقاصد الغزوة الأوروبية الحديثة ، فلقد جعلت فى آلياتها للفكر والثقافة والتعليم والإعلام مؤسسات وكتائب سبقت وصاحبت غزوات الجيوش وسلطات الاحتلال .. فالقناصل الفرنسيون فى الشام يتحدثون ، فى مراسلاتهم ، عن مقاصد مدارس إرساليات التبشير ، التى ركزت على الطائفة المارونية ، فيقولون عن هذه المقاصد : إنها تأمين هيمنة بلادنا على منطقة خصبة ومنتجة .. وجعل البربرية العربية تنحس لا إراديا أمام الحضارة المسيحية لأوروبا ، (٢) !

ومن بين خريجي مدارس التبشير هذه ، وفد إلى مصر عدد من المثقفين الكارهين للإسلام وحضارته - لشقاقتهم الغربية .. ولمذهبهم الدينى .. ولتناقضاتهم الطائفية مع الدولة العثمانية -

(١) (الأستاذ) العدد الثانى والعشرون - ص ٧٠٥ ، ٧٠٦ .

(٢) من محفوظات إرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس ، السنوات ١٨٤٠ - ١٨٩٨ م - انظر كتابنا (هل الإسلام هو الحل) ص ٢٢ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٥ م

فاحترفوا التبشير بالنموذج الحضارى الغربى : وأقاموا المناير الثقافية والإعلامية التى تدفقت من نوافذها ثقافة الغرب ونظرياته ومثله وقيمه ورؤاه السياسية : محاولين إقامة فى بلادنا بديلا للحضارة الإسلامية . . وكان من بين هؤلاء أصحاب مجلة « المقتطف » (١٢٩٣ - ١٣٧١ هـ ١٨٧٦ - ١٩٥٢ م) وجريدة « المقطم » (١٣٠٦ - ١٣٧١ هـ ١٨٨٩ - ١٩٥٢ م) وكتابهما ، من مثل يعقوب صروف (١٢٦٨ - ١٣٤٥ هـ ١٨٥٢ - ١٩٢٧ م) وفارس نمر (١٢٧٢ - ١٣٧٠ هـ ١٨٥٦ - ١٩٥١ م) وشاهين مكاريوم (١٢٦٩ - ١٣٢٨ هـ ١٨٥٣ - ١٩١٠ م) وأمين شميل (١٢٤٣ - ١٣١٥ هـ ١٨٢٨ - ١٨٩٧ م) وشبلى شميل (١٢٧٦ - ١٣٣٥ هـ ١٨٦٠ - ١٩١٧ م) إلخ . . وأضرابهم من خريجى مدارس إرساليات التبشير ، الذين احترفوا صناعة التبشير بالنموذج الحضارى الغربى : وكانوا - بعد احتلال الإنجليز لمصر - أركان سلطان اللورد كرومر (١٨٤١ - ١٩١٧ م) والسياسة الاستعمارية فى مواجهة الحركة الوطنية المصرية فى ذلك التاريخ . .
ومع هذا التيار التغريبى كان صراع النديم ! . .

فهو يصفهم به الأجراء .. أضداد مصر والمصريين .. المؤسسين لفتن .. والمتردددين على أبواب وكلاء الدول الأجنبية بالأكاذيب والأراجيف ..^(١) فأصبحوا لاشركيين ولا غربيين ، واتخذتهم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق ، وهى تحثهم على المثابرة على عملهم باسم المدنية ، وماهى إلا التوحش والرجوع إلى الحيوانية المعضة ..^(٢) .. وهم الذين نبتت لحوم أجسامهم فى خدمة

(١) (الأستاذ) العدد الرابع والعشرون . ص ٥٦٤ - ٥٦٧ .

(٢) المصدر السابق . العدد الثانى والعشرون . ص ٥١٠ .

الأجنبي، فانضمت لها أرواحهم، فكلما حولتها عن وجهتها الغربية دارت إليها، فهي قبله مصلاها التي وقفت في محرابها وقوف القانت الواعظ!.. فإذا قالت جريدة وطنية: ينبغي أن نحافظ على عوائدنا الجنسية والدينية، ونأخذ من محسنات أوروبا ما لا يضر بمعتقد ولا يذهب بمال ولا يهتك عرضاً، قامت جريدتهم لتقول: إن هذه دعوة إلى الهمجية وتقهر المدنية.. وإذا قال كاتب وطني: إن صلاحنا في استقلالنا بممالكنا وأعمالنا، قالوا: إننا غير مؤهلين لذلك، وإن حاجتنا إلى الأجنبي كحاجة الجسم للروح.. وإذا قال خطيب: إن سمعنا خلف تعلم الصناعة مما يزيد قوتنا ويعظم ثروتنا، عارضوه قائلين: لا معادن عندنا، ولا معامل في بلادنا، ولا صناعات فينا، ولا قدرة لنا، فأولى بنا أن نبقى تحت عوامل الزمن قانعين بمصنوع الغير...!

والنديم يلتصم العذر للأجنبي المستعمر، ولا يرى عذراً لهؤلاء الأجراء العملاء.. فلا يلام أجنبي نزع عن بلاده ليعدها في الشرق.. ولكن العجب من شرقي يخدم غريباً يسلب حقوق إخوانه، وإضاعة شرف أوطانه، والخط على ملوكه وأمرانه.. فالأجنبي المحض خير للشرقيين من هذا المحتال.. وشر الرجال من ينفق حياته في إفساد أهل بلاده، وإغراء الغير بهم، طمعاً في ذهب يموت ويتركه، فيفنى ويبقى ذكره القبيح خالداً في بطون أوراقه!...^(١)... ولا يلام الغربي على تداخله في شئون الشرق وأهله، فإن ذلك من أطماع الملوك في كل زمان، وإنما نلوم الشرقيين على تعاصيهم عن مصلحة بلادهم وانصرافهم عنها بالاشتغال بمصالح الغربيين...^(٢)... وليس من

(١) المصدر السابق، العدد السابع عشر، ص ٣٨٨ - ٣٩٠.

(٢) المصدر السابق، العدد الثامن عشر، ص ٤١١.

التهذيب أن ندم أوروبا ونقيح أعمال أهلها وعواندهم، فإن لكل أمة خصائص ألفتها وعادات لزمتهها، وإنما ندم الذين أرادوا تقليد أوروبا...^(١) « إذ لا يلزم من استسحان الغير لشيء نفعه لآخر... »^(٢) .

« لقد استمالت أوروبا هؤلاء الأجراء ، فانتموا إليها ، فهم أجانب منا وإن تكلموا لغتنا وسكنوا وطننا ، بل وإن دانوا بديننا... »^(٣) . ولقد « اعتمدت إنكلترة على جرائد هؤلاء الأجراء... تحرك بها نار النفرة بين المصريين... »^(٤) . والندى لم يقف في فضح تيار التغريب هذا ، بما كتب من مقالات ، ندر أن يخلو من إحداها عدد من أعداد (الاستاذ) فنظم في فضحهم الشعر أيضا !... وخاطب المصريين والشرقيين فقال :

وحاشوا أناسا أشربوا حب غيركم	وهم منكم لكن يسرهم الشر
مثالهم بعض الألى أنشأوا لكم	جرائد يزهو في صحائفها السطر
ومن بات مسرورا بخدمة غيركم	ومثّر له من فضل أعدائكم وفر
ينادونكم للغير باسم صلاحكم	وسم الأفاعى في صناعتهم حير ^(٥)

(١) المصدر السابق . العدد الثامن عشر . ص ٤١٧ ، ٤١٨ .

(٢) المصدر السابق . العدد الأول . ص ١٥ .

(٣) المصدر السابق . العدد الثامن عشر . ص ٤٢٠ .

(٤) المصدر السابق . العدد الثامن والثلاثون . ص ٩١٤ .

(٥) المصدر السابق . العدد الرابع والعشرون . ص ٥٦٤ .

والندم لا يدع مجالاً للشك في أن سهامه الوطنية واخصارية
والدينية إنما هي موجهة إلى أجراء الأجنبي وعملاء الخصارة
الغربية ، عن تيار « المقتطف » و « المقطم » على وجه التحديد . .
فهو يصف كتاب « المقتطف » : الذين جعلوا مجلتهم نافذة
للتنظريات الوضعية والمادية الغربية ، بأنهم « أعداء الله وأنبيائه »
و « الأجراء الذين أنشئوا لهم جريدة جعلوها خزانة لترجمة كلام من لم
يدينوا بدين ، ممن ينسبون معجزات الأنبياء إلى الظواهر الطبيعية
والتراكيب الكيماوية ، ويرجعون بالمكونات إلى المادة والطبيعة ،
منكرين وجود الإله الحق . وقد ستروا هذه الأباطيل تحت اسم فصول
علمية ، وما هي إلا معاول يهدمون بها عموم الأديان .. »^(١)

وهم « أعداء أنفسهم ، دفعتهم يد الطرد إلى النزوح عن وطنهم
إلى مصر الخروسة ، فالتجثوا إلى بعض أمرائها فأكرمهم ظناً أنهم
من أرباب الأقلام أو ذوي الأفهام ، بما يراه في جريدتهم التي ما
فيها إلا تراجم عن جرائد أوروبا العلمية .. فقربهم أمراء مصر اعتماداً
على أنهم شرقيون عثمانيون ، لا يخدمون إلا دولتهم ، ولا يغشون
إخوانهم ، فمالئوا أن كفروا بالنعمة ، وأنكروا المعروف ، وانحازوا إلى
الغير .. واعتبروا بعناوينهم ، وظنوا أن العلم محصور في تعلم الإنسان
لغة غير لغته ، يترجم بها كتب قومها ، ويقرب بها على من لم يعرفوها ،
موهماً أن المسطر تصنيفه والمجموع تأليفه ، وهذا هو الجهل المركب
الذي صيرهم أعداء لأنفسهم وهم لا يشعرون .. »^(٢) !

(١) المصدر السابق . العدد التاسع والثلاثون . ص ٩٢٣ ، ٩٢٤ .

(٢) المصدر السابق . العدد التاسع والثلاثون . ص ٩٣٧ - ٩٣٩ .

وعندما تجيب « المقتطف » عن سؤال قارئ مسيحي - إسكندر أفندي صعب - حول السد الذي بناه - الإسكندر - ذو القرنين - والذي وردت الإشارة إليه في القرآن الكريم .. وتقول في جوابها : « إن ذلك كله من الأقوال التي لا دليل على صحتها ! .. يتصدى النديم لهذا التشكيك في القصص القرآني .. ويقول : « إن قصة السد وأجوج وماجوج ذكرها القرآن العزيز ، وهو شائع ذائع معلوم لحررى المقتطف .. والقرآن لم يتعرض لتعيين جهته ومساحته واسم واضعه .. فلا يقال - ما قالت المقتطف - من أن السائحين وصلوا الجهة التي أخبر القرآن عن وجود السد بها ولم يجدوا شيئا .. وأدب الكتابة ، وحفظ علانق المحبة يقضى بالبعد عن الطعن الدينى فى جريدة تنشر بين المسلمين وفى بلادهم .. فالمسلمون لا يرضون أن يروا الطعن فى كتابهم بلسانهم متشورا بينهم .. » (١)

أما أصحاب «المقطم» .. فهم - برأى النديم - «الأجراء.. الخونة.. عملاء الأجانب.. الذين خانوا وظنهم وسلطانهم وأهلهم وخلانهم.. وذلك عند ما داروا حول أبواب الانكليب، يوهمونهم أنهم عبيدهم الخاضعون، وخدمهم المخلصون، وجواسيسهم الناقلون، وتراجمتهم المتبرعون، فوسوسوا لهم وسوسة إفساد وإغراء، وخوفوهم من المصريين، وحذروهم من التركون إتيهم والاعتماد عليهم، فأبعدوهم عن الخدمة، وحشدوا مكانهم الغرباء، حتى كأن ثمرة مصر ما حُرمت إلا عنى أبنائها. ثم نشروا تلك الجريدة الخرقاء، يوهمونهم أنها مقبولة عند المصريين، ولجهل الإنكليز بالعربية صدقوا هؤلاء الأبالسة، وألزم أتباعهم كثيرا من الناس بالاشتراك فيها ليعمموا نشرها فى البلاد..

(١) المصدر السابق ، العدد الحادى والعشرون ، ص ٤٩٧ - ٥٠ .

وهي عدوة المصريين»... فهي جريدة لشق عصا الاجتماع
الشرقي...»^(١)!! ..

بل إن النديم يصنف «المقطم» ضمن «الجرائد الإنكليزية التي
تصدر في مصر»^(٢)!! .. وأصحابها - عنده - من «تعلم في
مدارس الغير» على نفقة أهل الخير، فخرج مصطنعا، لا يعرف
له وطن ولا شرفا ولا قبيلة^(٣)!! .. يغمسون أقلامهم في نعمة
الشرقيين ليكتبوا بها معائب لمن أغنواهم، ويجلبوا بها مصائب لمن
أورواهم، فما يضرك إلا رجل يدعى أنه أخوك، يناديك بلهجتك
ليخرجك من بيتك ويسلمك إلى النحاسين الذين طافوا الأرض
لاسترقاق الأحرار!! .. لقد استخدمهم الغربيون بأجرة لاتزيد على
ثمان نعل!! .. وبرغيف يحصله الزبال وخرقة يملكها الشحاذ!! ..
وهم يستدعون أوروبا بدعوى المحافظة على الأمن والخوف من
الحركات الدينية^(٤)!! ..

ولقد احتدمت المعركة بين «المقطم» وبين «الأستاذ» ..
والنديم يكتب: «لقد خصتنا جريدة المقطم بسبب شخصي وقذف
ذاتي، افتراء، فقابلناها بحلم الأدباء وصفح الكرماء وصمت
الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس»^(٥)!! ..

(١) المصدر السابق، العدد التاسع والثلاثون، ص ٩٣٤، ٩٣٥، ٩٤٥، ٩٤٧.
٩٣٢. وانظر كذلك صفحات ٩٢٤-٩٣٣.

(٢) المصدر السابق، العدد الثاني والأربعون، ص ١٠٢٩.

(٣) المصدر السابق، العدد التاسع والثلاثون، ص ٩٣٤.

(٤) المصدر السابق، العدد الرابع والثلاثون، ص ٧٩٨، ٧٩٩. والعدد الثاني
والعشرون، ص ٥٣٢.

(٥) المصدر السابق، العدد الأربعون، ص ٩٧٥، ٩٧٦.

ولما أعيتهم الخيلة ، سعوا إلى سلطات الاحتلال طالبين نفى
 النديم من مصر ، كى لا يصنع ما سبق وصنع إبان الثورة العربية
 مرة أخرى ! .. بل وكان « المقطم » أول من أشار إلى القرار
 الاستعماري بنفى النديم .. « لقد بارت تجارة الأجراء ، فلم
 يجدوا طريقا تنفق به سلعتهم إلا السعاية .. ولقد أرجفوا بأن
 محرر (الأستاذ) سيبعد عن مصر .. » (١) .. وبعد شهر واحد من
 هذا الإرجاف بنفى النديم ، كان الرجل يودع قراءه ، بمقال جعل
 عنوانه « تحية وسلام » ، طوى به صفحة أول منبر وطني في
 الصحافة المصرية بعد هزيمة العربيين . وفي ختام صفحات أعداد
 (الأستاذ) قال : « وما خلقت الرجال إلا لمصابرة الأهوال ومصادمة
 النوائب ، والعاقلة يتلذذ بمآيراه في فصول تاريخه من العظم والجلالة ،
 وإن كان المبدأ أصعب وكدرا في أعين الواقفين عند الظواهر . وعلى
 هذا فإنني أعلن لإخواني قائلا :

أودعكم والله يعلم أننى أحب لقاءكم والخلود إليكم
 وما عن قلبي كان الرحيل وإنما دواع تبدت ، فالسلام عليكم! (٢)

لكن (الأستاذ) ، التى مثلت فى ذلك التاريخ : ديوان الوطنية
 المصرية والجامعة الشرقية والحضارة الإسلامية ، كانت الأستاذ
 الذى تعلم على يديه مصطفى كامل (١٢٩١ - ١٣٣٦هـ ١٨٧٤ -
 ١٩٠٨م) فكان « الحزب الوطنى » ، حزب الوطنية المصرية
 والجامعة الإسلامية .. ذلك الذى خرجت من عباءته القوى التى

(١) المصدر السابق ، العدد السابع والثلاثون . ص ٨٨٩ .

(٢) المصدر السابق . العدد الثانى والأربعون . ص ١٠٣٢ .

واصلت الجهاد الوطنى ، والرباط على ثغور الخصوصية الحضارية . .
فتوالت ، ولا تزال تتوالى صفحات التدافع الحضارى بين فكر عبد
الله النديم - أبرز المعبرين عن أحشاء مصر ، وهوية أبناء الشرق -
وبين الذين « استمالتهم أوروبا ، فانتتموا إليها ، فهم أجنب منا وإن
تكلموا لغتنا وسكنوا وطننا ، بل وإن دانوا بديننا » . . كما قال
النديم . . عليه رحمة الله .

الفهرس

٣	كلمات
٥	تعريف فى سطور
٨	تمهيد عن الموضوع .. والمنهاج
١٢	الانتماء الثقافى .. والتقدم
١٩	الجامعة الشرقية : انتماء حضارى فى مواجهة الغرب
٣٠	مقومات الانتماء .. والنهوض
٦٣	الآخر .. السياسى .. والحضارى .. والثقافى
٦٩	الأجراء .. المبشرون بالنموذج الغربى

إلى القارئ العزيز :

فى هذه السلسلة الجديدة :

إذا كان «التنوير الغربى» هو تنوير علمانى ، يستبدل

العقل بالدين ، ويقيم قطيعة مع التراث ..

فإن «التنوير الإسلامى» هو تنوير إلهى ، لأن الله

والقرآن والرسول صلى الله عليه وسلم : أنوار ، تصنع

للمسلم تنويرا إسلاميا متميزا .

ولتقديم هذا التنوير الإسلامى للقراء ، **تصدر هذه**

السلسلة ، التى يسهم فيها أعلام التجديد الإسلامى

المعاصر :

● د . محمد عمارة ● المستشار طارق البشرى .

● د . حسن الشافعى ● د . محمد سليم العوا .

● ١ . فهمى هويدى ● د . جمال الدين عطية .

● د . سيد دسوقي ● د . كمال الدين إمام .

وغيرهم من المفكرين الإسلاميين ..

إنه مشروع طموح ، لإنارة العقل بأنوار الإسلام .

الناشر